وحل الشتا

رواية لـ

كارم عبد الغفار

اسم الكتـــــاب: وحل الشتا

التـــــــــأليف: كارم عبد الغفار

الصف التصويري: الندى للتجهيزات الفنية

عدد الصفحـــات: 195 صفحة

عـــدد الطبعات: (الطبعة الأولى 2013)

التوزيع النشـــر :

دار البشير للثقافة والعلوم

مصر - القاهرة

تليفون :

01067467492 – 01067603966

إيميل :

darelbasheeralla@gmail.com
darelbasheer@hotmail.com

هـ
1433

الإيداع القانوني : ٢٠١٣ / ٩٣٢٩

الترقيـــم الدولي : 978-977-262-129-3

بسم الله الرحمن الرحيم

وَحْلُ الشِتَا

(رواية)

كارم عبد الغفار

***

أحفادي الأعزاء السامعين منهم والقراء، أستطيع الآن أن أتصور جيدًا كيف سيترك الناس البنادق والدبابات ويعودون في يوم من الأيام ليشتبكوا بالأيدي ويتحاربوا بالسيف والحجر والنبوت، فرغم ما وصل إليه العلم الحديث والنانو تكنولوجي والشبكة العنكبوتية، فقريتنا تعيش هذا المساء حالة كانت تعيشها منذ أكثر من ستين عامًا..

فقد انفجر البرق ودوت الرعود وهطلت الأمطار وأعلنت الريح عن غضبتها، فسقط عامود إنارة في قرية «خمّارة» جارتنا، أمام دار أبو عطية فقتلت عنزته وإحدى صغيراتها، وعلى إثر تلك الفاجعة انقطع التيار الكهربائي وأُعلنت حالة طوارئ في المنطقة، وربما في مركز «إيتاي البارود» كله.

أما المواصلات فقد وافانا الإخباريون أن عجلة السير توقفت تمامًا من وإلى «عزبة نوح» خاصة بالسيارات، وصرنا شبه منفصلين عن سائر القرى والعزب، وذلك لأن طريقنا لا يزال ترابيًّا متعرجًا منذ عشرات السنين، فما أن مسته ماء المطر حتى صار لبخة وانتشرت فيه المستنقعات و«الزحاليق»، التي يستحيل معها سير الإطارات بشكل مستقيم، خاصة وأن الترعة تسير بمحاذاة الطريق.

وعليه فما هجم علينا المساء حتى تكورنا كلنا، في إحدى حجرات المنزل رغم اتساعه كي نستدفئ ببعضنا.. أشعلنا مصباحنا الكيروسيني نمرة عشرة بعد أن فتشنا عنه في كل مكان ثم وجدناه أخيرًا معلقًا في

جدار الحظيرة فوق الحمار، وكانت رحلة البحث عن «الجاز» أصعب بكثير من رحلة البحث عن المصباح.. وها هي القصعة الصاج بين أيدينا ملأى بقطع الخشب و«قوالح الذرة» المتوهجة للتدفئة بنفس الطريقة البدائية القديمة، وأما عن حلو الجلسة فقديم أيضًا، وهو عبارة عن «لِبشة» قصب بلدي قد تناثرت أشلاؤها بيننا في دقائق، ولم أنل منه إلى الآن سوى مصمصات ضئيلة لضعف موقف أسناني، ولنذالة بعض أحفادي النوحية الموكل إليهم مساعدتي في ذلك.

لكن الفارقين الظاهرين بين ليلتنا العصرية هذه والليلة الخالية محل الحكاية، هو أن السقف من فوقنا الآن لن يسمح لـ«سراسيب» المطر أن تتسلل إلينا وتنقر رؤوسنا؛ كما كانت في عهد سقف القش والبوص وحطب القطن، أيضًا السجاد الفاخر من تحتنا يسمح لنا بجلسة مريحة للمقاعد، وليس على حصير من الجريد المغزول من نبات السمر اليابس، والذي كان يترك علامات واضحة في أماكن واضحة وغير واضحة في أجسادنا!

***

ففي ليلة أخت هذه قبل بضعة وستين عامًا.. كان ما كان..

كنت أتشبث برحم أمي رافضًا الخروج رغم محاولات العائلة برجالها ونسائها وتوسلات الكبير والصغير فيها؛ فلا أخفيكم سرًّا أن الوضع داخل رحم أمي كان أفضل بكثير من حال عائلتي في الخارج!

فالعمودية التي ظلت فيهم عقودًا يرثونها أبا عن جد وكابر عن كابر، ذهبت منذ سنوات أدراج الرياح ولا يبدو أنها ستعود.. وجدي حمزة النوحي آخر العُمَد في عائلتنا، وصاحب الأساطير والبطولات في «عزبة نوح» و«جبارس» و«خمارة» «وعزبة الباشا»، والذي غطت شهرته شهرة النحاس باشا وأدهم الشرقاوي، قد تنازل طواعية عن العمودية في مفاجأة للجميع، وقسم معظم أملاكه على فلاحي العزبة بمقابل زهيد، ثم تفرغ لمواجهة الباشا، ثم شاءت الأقدار أن يغيب حمزة خلف القضبان بعد أن قتل «زبيبة» ناظر عزبة الباشا نهارًا جهارًا، بل كاد أن يقتل الباشا نفسه.

لن أطيل عليكم، فبعد مفاوضات مع العظيمة جدتي «بحر»، وبعد أن رأيت المسكينة أمي شارفت الموت بسببي، وبعد تدخل ماهر من خالي الحبيب في عملية إخراجي وهمسه في أذني بخبر سعيد ستعرفونه في آخر الرواية، لم أجد بدًّا من الخروج ومواجهة واقع «النوحية» الأليم.

قررت الخروج ويا ليتني ما فعلت..

وجدت ما حسبته وأشد.. ليلة حالكة السواد، ومطرًا يهتز معه سقف الدار، وبردًا يخترق الجدران ويحطم العظام، وموتًا يتسلل بين جنبات الظلام يتبعه عويل وصرخات!!

والليلة جاء دوري لأنقل لكم ما حدث في تلك الليلة الغامضة، وما سبقها من تاريخ جدنا حمزة النوحي وأخوته، وما تلاها من تاريخ حمزة النوحي وأحفاده، ولكم كامل الحرية أن تعيدوا تقليب رأيكم في

عائلتكم من جديد.. سأحكي وستسمعون، والقرار في النهاية ما تقررون..

تنبيه: من فضلكم أغلقوا هواتفكم أو صمّتوها..

إذن نبدأ على بركة الله، ونقول كما كانت تقول الجدة «بحر»:

كان يا ما كان يا سادة يا كرام ولا يحلـو الكـلام إلا بـذكر الـنبي عليـه الصلاة والسلام..

***

دار الباشا حول مكتبه يهمهم ويزوم ويضغط على فكيه وينتفخ غضبًا، ثم توقف، ثم جلس على كرسيه، ثم ضرب بقبضته ما طالته يده ؛ فقد جاءه للتو الخبر الفاجعة الذي لم يعرفه في الناحية سواه، وبناء عليه صارت آماله في ضم «عزبة نوح» مهددة، بل صارت روحه مهددة..

الخبر: **[حمزة النوحي خرج في عفو ملكي، ولم يقض من مدته إلا أربع سنوات فقط.. وقد يصل العزبة غدًا أو بعد غد !!]** (١)

(١)

بدت دار «النوحية» شامخة وسط الزراعات، مستدفئة ببيوت الفلاحين المحبين المؤمنين بقواعد التاريخ ودورات الزمان، الذين لا يزالون يلجئون إلى أهلها في ملماتهم حتى بعد أن غاب البطل عنها منذ سنوات، لكن مهما طالت الغيبة فهم في الانتظار..

الدار قديمة قدم ساكنيها، تطاول في كبريائها سرايا الباشا وتسامي في بهائها الدوّار، فهي ديوان «عزبة نوح» ومقر الحكم الفعلي أو كانت.. مطلية من الخارج، أو كانت، بألوان زاهية من الجير تساقط معظمه مع سقوط العمودية التي كانت، وسقوط حمزة، وركلات المطر بجدرانها طيلة الشتاء.. مفتوحة طيلة الصيف ومواربة طيلة الشتاء.. أمامها

(١)– يناير ١٩٤٨م .

أشجار متناثرة على غير تنسيق، ومظلة أعمدتها خشبية مسقوفة ببوص، ودكتان للجلوس في عصاري الصيف أو ضحوات الشتاء.

أما باب الدار فهو يشبه بوابات عصر المماليك ويشبه إلى حد كبير حمزة السجين، فهو كتلة بنية مستطيلة غليظة ثقيلة للغاية من الخشب العزيزي المرصع بقطع الصاج.. لم يتأثر رغم طعنات السنين سوى بعطل بسيط في مزلاجه الخارجي، كالعطل الذي أصاب النوحية.

أما من الداخل، فالدار تتسع لعشرات الساكنين، فلها فناء في وسطها يسمونه «الحوش»، مكشوف من كل جوانبه فمنه إلى السماء مباشرة، وتطل عليه جميع حجرات السادة السكان.. الدار مكونة من طابق واحد إلا في الركن الشمالي الغربي منها؛ حيث بني مقعد فوق «المنضرة» كان خلوة للعمدة حمزة أولشقيقه الشيخ.

الجدران من الداخل أفضل حالًا من الخارج؛ لأنها تخضع لعناية وإدارة السيدة «بحر» السيدة الحقيقية للنوحية في غيبة السيد عن الدار وخاصة في هذه الليلة.

لكن أبرز ما في الفناء، بل ما في دار النوحية في المكان والزمان هي تلك النخلة العجوز التي تتوسط الفناء، فهي شاهد عيان لم يغفل لحظة عن أحداث النوحية منذ أن انتقلوا إليها بعد ذهاب العمودية، إلى أن رُبط فيها «زبيبة النذل» ناظر عزبة الباشا.

على جوانب الفناء انتشر الدجاج يبتغي من فضل الله، ينقر الأرض ويتقافز هنا وهناك، وأحيانًا تقع اشتباكات جانبية بين بعض الديوك

فتسفر عن إصابات طفيفة، أما الحمام فقد هبط من البرج الطيني والصفائح المعدنية المعلقة في جدران الفناء، وحام وزام يلتقط الحبوب التي تملأ الفناء مستغلًا انشغال الدجاج في تلك الاشتباكات، والبط الصغير محبوس خلف سوره الطيني الدائري والذي يسمونه «الحوّاش»، يغطس بمنقاره في إناء الماء (المسقا) ثم يرفع فمه ليبلع المحشور في حلقه الصغير.. وخلف الحواش استلقى عجل صغير حديث عهد بالفناء على أعواد قش يابسة يتمطى ويستدفئ بأشعة الشمس التي تنسحب مبكرًا في تلك الأيام..

ومن خلف العجل الحظيرة التي كانت عامرة بالبهائم أيام حمزة ثم خلت اليوم لجاموسة وبقرتين باركات تجترن الطعام في هدوء.. على ظهر كل منهن «جِلال» من الصوف مصنوع من جوالات الأرز أو زكائب القطن يدفئهن ويحميهن من «سراسيب» المطر التي تتساقط من السقف القشي.. و«المَداوِد» أمامهن تبدو فارغة في انتظار فتى النوحية مسئول الإعاشة.. وبجوار البقرتين حمار رمادي قوي يقف سارحًا شاردًا في مشاكل النوحية وعثرات أهلها، يرثي عموديتهم التي زهد فيها العمدة حمزة لأسباب تخص الكبرياء والكرامة والحرية ومصطلحات معقدة كهذه، ويبكي أملاكهم التي تتقلص يومًا بعد يوم على يد خليفة الشقيق الأصغر - هداه الله، ومن حول الحمار ثلاثة جديان صغار يتقافزون ويتصارعون بشكل تمثيلي يستعرضون عضلاتهم أمام سكان الحظيرة وأمام أمهم العنزة السوداء التي استلقت

أقصى الحظيرة في هدوء وسكينة تامة، تمضغ اللاشيء فتجعلك تتصور أنها زوجة الحمار..

وفي الركن البعيد بدت فرس عجوز سوداء لا تكاد تظهر وسط ظلام الحظيرة، وقفت شامخة متغطرسة تضرب الأرض بقدمها بين حين وآخر، كي تعلن أنها مطية حمزة النوحي الذي غاب، ولعلها لم تدرك بعد أن السيد حمزة لم يعد عمدة الناحية، وبجوار الفرس تقف مهرتها الصغيرة التي تشبهها في اللون والقوام تحتك بها على سبيل المداعبة، وتتابع لعب الجديان وتشتاق لمشاركتهم، فتهتز معهم كلما اهتزوا، وترفع قدميها كلما قفزوا، وتصهل صهيلًا ضعيفًا من مكانها، لكنها لا تستطيع أن تشاركهم، وذلك مراعاة للفروق العرقية والاجتماعية بينهم، وبالطبع حفظًا لموقع أمها الرفيع داخل حظيرة النوحية.

***

جلست «حلاوتهم» أمام الفرن، وقد ازدادت سمرة على سمرتها مع لفح حرارة الفرن، وازداد رشح أنفها الذي تحاول أن توقفه بين حين لآخر بطرف ثوبها دون فائدة، وفي مواجهتها جلست الجميلة زينب تجهز العجين وتعد الرغيف فهي مصدر الطرقات، وقد تأثرت هي الأخرى بحرارة المكان، لكن قوانين الفيزياء لا تتعامل مع الجميع بالمساواة، فقد بدا وجهها أكثر إنارة وإثارة وبهاء، ولا يزعجها إلا

بطنها المنتفخة التي تصطدم بين الحين والآخر بحافة الطبلية؛ فقد كانت السيدة زينب في شهرها الثامن[١]..

نثرت زينب حفنة دقيق على سطح الطبلية كإجراء فني قبل كل رغيف، وألقت قطعة العجين المكورة على الطبلية وهبطت عليها براحتيها تفردها، حتى تركتها رغيف خبز بلدي مستديرًا[٢] قطره ٣٠ سم تقريبًا، جاهزًا لتنفيذ حكم الإعدام رميًا إلى النار، وبالفعل مدت حلاوتهم لها المطرحة، فحملت زينب الرغيف على راحتيها وألقته برشاقة على المطرحة؛ ليذهب إلى مثواه الأخير..

بجوارهما وضعت باجور أسطوانية فخارية تضعان فيها الخبز أولا بأول بعد أن يبرد.. ومن وراء «حلاوتهم» تناثرت «حوايات» القش الملفوفة المجهزة ملقية على أطراف السلم الطيني الذي يؤدي إلى سطح الدار..

توقفت زينب فجأة ووضعت يدها على ظهرها، وهي تتألم أو تتآلم:

- آه.. ظهري

نظرت حلاوتهم لها باستخفاف، وقد تعودت منها تلك المشاهد التمثيلية في تلك الأيام، فعلقت بغير اهتمام وهي تشطر الرغيف بالسكين نصفين، قبل أن تقذفه في فم الفرن:

- كفاكِ كهن نسوان واخبزي قبل أن تفاجئنا عمة «بحر»!

- أنا لا يخيفني بحر ولا نهر..

---

(١) – هذا عمر الراوي حينها.

(٢) – يسمونه «عيش بط» وذلك نظرًا لإجراء التبطيط اليدوي الذي يقوم به الخباز.

- سأخبرها بتلك المعلومة أيها الشجاعة..

***

في مقدمة حجرة عبد المولى الشقيق الأول لحمزة، جلست بطلة الليلة وكل ليلة الحبيبة «بحر».. صاحبة الخمسين عامًا حينها أو أكثر قليلًا، والتي لا يظهر عمرها هذا إلا في خصلات شعرها الهاربة من تحت شالها الأسود، أما وجهها فلا يزال صبوحًا مشرقًا صامدًا أمام غزو التجاعيد التي لم تنجح إلا في احتلال جزء ضئيل عند جبهتها البيضاء، وعيناها السوداوان تلمعان بل تكادان تضيئان واللتان تستخدمهما في جميع الأغراض حسب الشخص الذي تنظر إليه، وفي الغالب تستخدمهما في العقاب، أما إذا كان المنظور إليه هو زوجها حمزة فالأمر يختلف كثيرًا كثيرًا!

افترشت بحر حصيرة جريد بالية، وبين يديها طبق أرز كبير تصطاد منه الحصا قبل ترحيله إلى حلة الطهي.. وبجوارها جلست الجدة نجية زوج عبد المولى، والتي بدت عكس بحر تمامًا فيما وصفتُ، عدا الخمسين عامًا.. وأعلى الفراش رقد الجد عبد المولى، يعالج أنفاسه بصعوبة فتدخل بصوت مثل كركرة النارجيلة، وتخرج بصوت كزفير الخيل، وقد ظنوا أن ما حل به رطوبة شتوية تحل في الغالب ضيفة خفيفة ثم ترحل بسلام، أو إسهال ينقضي سريعًا بالمشروبات والأعشاب، لكن المرض ضرب مخالبه في جسده وتشبث بلحمه وعظمه، وتمكن في يوم واحد أن يلقي بنصف روحه خارج جسده، فأطلت عظامه، وأظلم وجهه كأنه

يجلس على باب قبره، وقضى يومي مرضه إما داخل الكنيف أو متكورًا على فراشه استعدادًا للانتقال.

قالت «بحر» متباسمة تحرك الصمت الراكد الذي لا يخترقه إلا أنفاس عبد المولى الثقيلة وخشخشات الأرز في الصينية النحاس، ومصمصات شفاه نجية المشفقة على زوجها:

- شد حيلك أبا حسن.. هل تترك الرطوبة تغلبك؟

أغمض عبد المولى عينيه وفتحها، وحرك رأسه يمينًا ويسارًا، يبحث عن بقايا هواء، ثم رد بصعوبة:

- أشعر أنها قاتلتي..

فقالت نجية لائمة:

- أعوذ بالله من الشيطان.. لم هذه السيرة النكدة يا عبد المولى؟

استعد عبد المولى لإلقاء جملة جديدة، فلملم أنفاسه من أرجاء الحجرة بصعوبة، ووضع يده على صدره يدفع بالكلام إلى الخارج، لكنه يفشل في ذلك، فتتدحرج الكلمات إلى الخلف ساقطة إلى معدته قبل أن تصل إلى شفتيه، لكنه يحاول في جولة ثانية فيبدو وكأنه يستعد للقيء، فينجح بالكاد:

- لن أنجو منها يا نجية.. لن أنجو

زمت نجية شفتيها وانضمت إلى بحر الصامتة.. تنظران إليه مشفقتين تودان أن يسكت حتى يستريح، لكن عبد المولى استطرد:

- أعرف أن سهم الملعونة أصابني..

فقالت نجية غاضبة:

- يا رجل وحد ربك.. حرام عليك هذا الكلام..

ثم شاركت بحر:

- الشر بره وبعيد.. أطال الله عمرك حتى ترى حمزة وتفرح بحفيدك..

تلفتت بحر حولها تبحث عن الحفيد:

- سآتي لك به يفرج عنك..

نادت بحر من مكانها:

- مصطفى.. ولد يا مصطفى..

لم يجبها مصطفى على غير عادته، فحمدت الله في سرها فهذا ما تمنته، فاستندت إلى ركبتيها ونهضت خارجة من الحجرة، مدّعية البحث عنه، لكنها في الحقيقة كانت في حاجة للهروب قبل أن تخونها عيونها، فما أن تخطت عتبة الحجرة حتى توارت جانبًا عن فتحة الباب، وقد وجدت لها ملاذًا، فأسندت ظهرها إلى الجدار تجمع شتات أنفاسها بشهيق وزفير، وهي تفكر في حال المسكين شقيق زوجها الذي تراه بالفعل قد أوشك على نهايته والإسهال الأصفر لن يتركه حتى يقتله، وهو بيأسه يستدعي ذلك المصير ويعجله، فرفعت وجهها إلى السماء وهمست داعية:

- جب العواقب سليمة يا رب..

ثم تابعت مهمتها، ودارت في الفناء تنظر يمينًا ويسارًا، تنادي المفقود:

- ولد يا مصطفى.. يا مصطفى.. أنت يا ولد..

لم تسمع إجابة من مصطفى، ولكنها سمعت نداء الشيخ سلامة الشقيق الثاني لحمزة من الخارج يضرب على الجدار بعصاه «المَحلب» المقوسة:

- يا نوحية.. يا أهل الدار..

تنفست «بحر» الصعداء، ووجدته بديلًا جيدًا لمصطفى الصغير، فقد كانت في حاجة إلى من يحمل عنها بعض أعباء النوحية في ذلك النهار، فخرجت إليه مسرعة مرحبة:

- أهلا شيخ سلامة..

إنه كفيف تخطى الخمسين، أقرب إخوة حمزة إليه في الجسم واللون والروح، كان يسكن مع النوحية في نفس الدار حتى يجد من يؤنسه بعد أن سجن حمزة وماتت زوجته، ثم تركه ابنه الوحيد هاربًا إلى مصر، لكنه الآن غير إقامته.. نزل سلامة عن أتانه ببطء:

- السلام عليكم..

أخذت بحر خطام الأتان وربطته في عمود النافذة:

- تفضل يا شيخ سلامة..

صاح في الفناء كعادته وهو يلج الدار:

- يا ساتر.. دستوركم يا من بالدار!

وصل سلامة بسهولة إلى حجرة أخيه، فاستفتح اللقاء بصياحه المحبب إلى من بالدار، والذي يذكرهم بصياح حمزة:

- ولد يا عبد المولى.. قُم يا ولد كفاك كسل..

ابتسم عبد المولى ابتسامة ضعيفة وحرك جزعه يريد أن يقوم فقام نصف قيام، ونهضت نجية تسلم عليه وتأخذه إلى فراش عبد المولى، فأجلسته عند رأسه كما يحب، فمد يده يتحسس وجه أخيه:

- هانت إن شاء الله.. ساعات ويذهب السوء إلى حال سبيله..

- أو أذهب أنا إلى...!

فرحت نجية بإطلالة سلامة، فهو يضفي بهجة على دارهم الساكنة، ويخترع الفرح اختراعًا، ويفيق عبد المولى في حضرته، فقطعت على عبد المولى جملته الكئيبة المتوقعة، وأمنت على كلام الشيخ سلامة متباسمة:

- يسمع منك ربنا يا شيخ سلامة..

ثم تابع سلامة، فمسح على جسد أخيه ثم نقر بأصبعه على صدره يمازحه:

- أعجبك الرقاد أيها النوحي الضعيف!

لملم عبد المولى أنفاسه بصعوبة وتباسم لأخيه، وهو ينطق بصعوبة:

- أمنيتي.. أن أنهض.. وأجالسك.. ونعود كما كنا يا سلامة..

مسح سلامة برفق على صدر عبد المولى:

- عما قريب سنعود يا عبد المولى.. عما قريب سيعود كل شيء..

- أشياء إذا ولت لا تعود..

ضربه سلامة بلطف على جسده، ثم قال محفزًا:

- لكن العمدة حمزة سيعود في يوم من الأيام يا عمدة المتشائمين..

ابتسم عبد المولى مسلمًا بتفاؤل أخيه أو مدعيًا:

- معك الحق.. يكفينا أن حمزة سيعود..

ثم استفزه القيء فانتفض وأمسك ببطنه، والتوى ناحية طست عن يساره أسفل الفراش معدًّا لقيئه المستمر، والذي أصبح عاديًّا كإسهاله.

***

زينب بنت الخامسة والعشرين، تقطع نهار النوحية البطيء ومشقة الخبيز بدندنة هامسة لا يسمعها إلا رفيقاها الدائمان في هذه الدار، السيدة حلاوتهم وأنا في بطنها، وذلك تحسبًا لهجوم أمها بحر في أي وقت في جولات التفتيش التي تقوم بها داخل الدار بين الحين والآخر.. وقد حوّلت زينب دقاتها على «الطبلية» لفرد قطع العجين إلى إيقاع بطيء هادئ يناسب الموال الذي تغنيه:

- السكة بطلت وأنا من فوقها ماشي..

هاتوا الدوايا والقلم واكتبوا على شاشي

إني قتيل المحبة وحبيبي راح ولا جااااااااشي..

تضاحكت حلاوتهم، وهي تشاكس زينب، وتعلق على غنائها ساخرة:

- فينك يا سلامة حجازي..

ضحكت زينب بصفاء «نوحي» نادر لا يعكره ما يعكر خواطر النوحية، فهي أكثر نسائهم مرحًا ومزاحًا؛ فهي مع توالي الحوادث منذ تنازل أبيها عن العمودية، ثم مقتل زوجة عمها، ثم سجن أبيها، ثم عمل زوجها حسن سائقًا لدى الباشا رغمًا عنه، ثم مرض حموها عبد المولى، لم تعد تبالي، أو على الأقل تحاول ألا تبالي؛ حتى لا تثقل كاهلها بما لا طاقة لها به، وكفاها أن أمها «بحر» تحمل عنها الأثقال..

رفعت زينب راحتها إلى أذنها تتابع مواالها باسمة، وهي أكثر اندماجًا:

- ليه يا رفاقه تبيعوني وأنا الغالي..

وترّخصوا السعر وتنادوا على دلالي..

دلال يدلّل عليكم يا مرخصين غاااااالي..

مفاجأة متوقعة ومتكررة.. دخلت عليهما «بحر» فجأة فوجدت ابنتها متلبسة بحالة غناء.. لمحتها حلاوتهم فالتفتت على الفور إلى ما بين يديها ورفعت المطرحة متشاغلة بوضع الرغيف في الفرن لتنفي عن نفسها شبهة الاشتراك في الجريمة بالتشجيع أو بالاستماع، وأما الطيبة زينب فلم تنتبه لوجود «بحر» واستغرقت في مواالها بنفس الحماس:

- عاشرتكوا ع النقا وإيه نابني منكم..

إلا المسبة وتغيير القلوب منكم..

أصبحت رق السفايا من محبـــ.. محبـ

كانت بحر على استعداد أن تسكت عن الجريمة حتى نهايتها؛ فالكلمات تواسيها وصوت ابنتها يداويها، ولولا القلق على هيبتها ومراعاة لمرض شقيق زوجها، لطلبت منها أن ترفع صوتها ولجلست تستمع.. لكن زينب شعرت في منتصف الجملة بـ«الكبسة» خلفها، خاصة أن السيدة حلاوتهم تخشب وجهها فجأة وصارت أكثر جدية على غير عادتها ولم تعد تبد إعجابًا أو سخرية، فبلعت زينب ما تبقى من الجملة وطوت لسانها في فمها وسكتت.. فصار حتمًا على بحر أن تتقدم لتقوم بواجبها المتوقع، فوكزت ابنتها في ظهرها بركبتها:

- ألا تستحي يا بنت حمزة..

لم تجب زينب المصدومة، وكتمت حلاوتهم ضحكتها المتشفية.. ثم تابعت بحر:

- عمك ينازع بالداخل وأنت تغنين!

تلهت زينب في العجين أمامها كأن الكلام لا يخصها، ثم تذكرت بحر ما جاءت من أجله:

- أين القرد مصطفى؟

- طلع الغيط مع العيال..

ضربت بحر على صدرها فزعة، ووكزت زينب في ظهرها ثانية:

- خيبك الله.. كيف تتركينه يخرج في هذا البرد..

- وماذا أفعل؟ هل أربطه في رجل السرير! تعلق بهم ورأسه وألف سيف يذهب معهم..

- دماغه حجر مثل أهله..

قطع كلامهما صوت «خليفة» الشقيق الأصغر لحمزة، ينادي من حجرته:

- حلاوتهم.. أنت يا حلاوتهم..

التفتت بحر لحلاوتهم وعلقت ساخرة:

- سبع النوحية استيقظ أخيرًا.. قومي انظري ماذا يريد..

قامت حلاوتهم بسرعة ونفضت عن ثيابها الدقيق وسلمت «المطرحة» لبحر؛ كي تدرك زوجها قبل أن يطلق النداء الثالث، والذي غالبًا ما يأتي بالشتائم..

- آتية يا أبا بشر..

(٢)

برك جمل النوحية وسط حقلهم مستكينًا راضيًا بما تبقى من أملاك النوحية في عزبة الباشا، داعيًا الله أن يديمها نعمة ويحفظها من أيدي الباشا ويعقوب، ومن فتنة البكوية التي تلاحق خليفة، راجيًا أن يُعلَّق الحال على ما هو عليه حتى يخرج لهم حمزة، ثم يلتفت الجمل قريبًا إلى رأس الأرض؛ حيث كوخ الشيخ سلامة الذي يبدو في عينيه قصرًا، وبجواره مسجده الذي لم يكتمل بعد، ثم يلفته دار يعقوب التي بنيت

على أرض النوحية قريبة من كوخ الشيخ سلامة، فيغيظه منظرها فيصدر رغاء مفزعًا معبرًا عما بداخله، فتندفع كتلة لحمية من حلقه إلى خارج فمه يصفونها بـ«ضرب القلة»، فيفزع مصطفى الصغير الذي يقف أمامه يلقمه أعواد البرسيم في سلام، فيتراجع خائفًا للحظات ثم يهدأ، ثم يعود إلى الجمل ثانية، ثم يبتسم معتبرًا أن جمله الحبيب يداعبه؛ فيريده أن يعاود الكرة لكن الجمل لا يفعل..

أما سائر أولاد النوحية فيجلبون أغمار البرسيم المحصودة والمكومة على الأرض بترتيب، ثم يعودون ليناولوها للغلام «بشر» وهو فتى النوحية المسئول رسميًّا عن إعاشة البهائم، وتشغيل أطفال العائلة العاطلين في أيام الشتاء، وأيضًا النظر في طلبات الشيخ سلامة..

البرد يطعن الجلد الناعم الطري فتصطك أسنان الأطفال برعشة أفكاكهم السفلية، وتزداد قسوة البرد مع قطرات الندى أو المطر الذي لم يتبخر منذ الصباح، بل ظل مختبئًا بين أعواد البرسيم، ثم يسيل على قفا من يحمله فيبل الملابس ويتخلل إلى سطح الجلد، فتكون له لدغة كمس الكهرباء، فينتفض الطفل وينكمش ويبحث عن دفء، فلا يجد سوى طرف كم جلبابه فيجذبه ليغطي به أطرافه التي توشك أن تتجمد.

تحرك بشر بنشاط عال كعادته، فلا يشعر بالبرد كسائر الأطفال.. يضع حزم البرسيم باحتراف منتظمة متساوية على ظهر الجمل في «غبيط» كبير[1].

ومع ظاهرة التلكؤ التي بدت على أولاد النوحية، وحالة الاستسلام للبرد والنسيم، فهم على وشك أن يحتضنوا بعضهم ويناموا، لم يجد بشر بدًّا من الصياح على غير عادته:

- اعملوا لكم همة يا نوحية.. أسعفوا.. البهائم لم تأكل منذ الصباح..

الصغيرة هند، والتي تشبه شقيقتها زينب إلى حد بعيد، انثنت تعالج ثيابها المبلل مغتاظة، ثم انتصبت ترد الصيحة بشكوى:

- أنا تجمدت من البرد يا بشر.. حرام عليك!

رد بشر الهادئ دائمًا، وهو منهمك في تسوية الحمل، وإعادة ترتيب بعض الحزم، ليتسع الغبيط لأكبر كمية ممكنة من البرسيم:

- هانت يا هند.. أربعة أغمار فقط نسوي بها الحمل..

وجدت الهند الحوار فرصة جيدة لتحمية أطرافها المتجمدة، وتحريك فكها الذي لم يتعود السكون، وأيضًا للاستراحة:

(1) - الغبيط عبارة عن زكيبة فارغة أو جوالين فارغين يتم تضفيرهما ببعض على شكل مستطيل مفتوح من أعلى بشكل طولي، ويوضع على ظهر الحمار، وأحيانًا الجمل، كوعاء للبرسيم أو للروث المنقول إلى الغيط.

- منذ ساعة وأنت تقول أربعة أغمار.. أنت السبب في هذا التعب وفي جوع البهائم.. أنت أصررت على الإتيان بالجمل رغم أنك تعلم جيدًا أن حِمل الجمل أكبر بكثير من حمل الحمار.. وتعلم جيدًا أننا نخشى الركوب على الجمل ونفضل الركوب على الحمار..

وقف أولاد النوحية يتابعون هجوم هند الشرس متمنين أن يفضي إلى إعلان بشر بالانصراف، لكن بشر الطيب انسحب من مناقشة هند العنيدة، وتركها تتحدث إلى نفسها، والتفت إلى غلام آخر من النوحية قد توارى بقصره تحت غمره الثقيل، فخف نحوه يساعده وحمل عنه البرسيم ووضعه في الغبيط.. وقف الطفل القصير بجوار بشر يريد أن يقول شيئًا، لكنه يخشى شيئًا، فنظر الطفل حوله يؤمن جبهته أولًا، خاصة من ناحية الآنسة هند، فتأكد أنها لا تراه ولن تسمعه، فاقترب خطوة من بشر المنهمك في تسوية البرسيم، وقال هامسًا:

- أنا من سيركب على الحِمل يا بشر.. اتفقنا؟

قبل أن يرد بشر بالموافقة أو الرفض، كانت آنسة أخرى من آنسات النوحية العاملات المجتهدات قد وصلت بغمرها وسمعت ما حاول الغلام الطيب أن يخفيه.. فصاحت لتفضح المؤامرة:

- بل أنا من سيركب على الحِمل أيها القصير المكير..

يا للهول! تطور الأمر واشتعل فسمعتهم الغاضبة هند، فألقت بغمرها على الأرض، وتوجهت نحوهم متنمرة:

- لا يا شيخ أنت وهي! وماذا فعلتما أنتما منذ الصباح كي تركبا على الجِمل.. ورب الكعبة لن يركب عليه غيري..

لفتت المعركة انتباه السيد مصطفى الصغير المنهمك في إطعام الجمل، فنظر إليهم مترددًا هل يترك الجمل ويذهب إليهم أم يبقى في مهمته، لكن عندما وافته الإذاعة والصياح أن المعركة حول الركوب، ألقى بالبرسيم في وجه الجمل، وانسحب نحوهم مسرعًا، ووقف يتهته ويلوح بيده الصغيرة:

- أنا الـ لـ لـ ح نلكب ع برثيمـ..

فانفجر الأولاد ضاحكين..

(٣)

أخذت حلاوتهم «بُلغة» زوجها وانحنت عند عتبة باب الحجرة تنظفها من الطين بـ«كماشة» القوالح.. أنهت تنظيفها سريعًا ثم تركتها في وضع الركوب، ثم استدارت نحو «خليفة» تساعده في ارتداء طقمه الشتوي القديم لزوم الأبهة المصطنعة قبل لقاء الباشا، فجلبت له العباءة، وفتحت له كميها فمد ذراعيه وارتداها، ثم استدارت حلاوتهم تبحث عن الطاقية والعمامة، فتحت صندوق الملابس الذي يشبه نعش الموتى تفتش فيه.

استغل خليفة انشغال حلاوتهم، وتناول كسرة المرآة الملقاة على الفراش.. نظر بأسى إلى وجهه الذي اسمر من بعد بياض ونحل من بعد سمنة.. تحسس التجاعيد التي تمددت على جبهته فسيطرت على ضفتيها الشرقية والغربية، ثم لفته - ككل مرة ينظر فيها إلى المرآة – خصلات الشعر الأبيض تشق رأسه شقًّا، والجديد أنها قفزت إلى زعانف شاربه، وهو لم يصل إلى الخمسين بعد.. قرّب المرآة أكثر إلى عينيه كأنه يشاهد ماضيه وماضي النوحية في صندوق الدنيا، اللقطات الجميلة تداعب خياله فتطل عليه من المرآة.. ها هو الدوّار السعيد، ها هو كرسي العمودية الذي ضيعه حمزة بكبريائه فضاع كل شيء، لكن المرآة تعكس شعاعًا متلصصًا فتكشف الغطاء عن صندوق الدنيا فيختلط الماضي بالحاضر، فينعكس الضوء على سطح المرآة، فينزعج خليفة ويعود إليه تجهمه فيصرف بصره عن المرآة، لكنه ما يلبث لحظات حتى يعود لينظر فيها؛ فيرى نفسه وقد ارتدى بزة «البك»، وقد عاد السواد إلى شعره الناعم، ولا ينقصه إلا الطربوش الأحمر فيمد يده يبحث عنه، فتتبخر الصورة فجأة بظهور حلاوتهم التي تمد له يدها بالطاقية والعمامة، فتناول خليفة الطاقية منزعجًا:

- زوجك أصابه الكبر..
- بسم الله الله أكبر.. يا رجل أنت أصبى من ابنتك..

أرادت حلاوتهم بمناسبة تزينه هذا أن تفتح موضوعًا ملحًا، لكنها تتردد دائمًا كلما أرادت أن تحدثه خوفًا من غضباته غير المبررة، لكنها توكلت على الله وألقت ما في جعبتها:

- أهناك أخبار عن البكوية؟

ضغط خليفة على فكيه غيظًا، لأنه يظن دائمًا فيمن يسأل هذا السؤال أنه يعلن شماتته أو يذكره بنحسه، فقد باع ودفع ورشا وخسر الكثير من أجل ذاك الحلم، وإلى الآن الباشا لم يعطه إلا وعودًا.. ارتقبت حلاوتهم غضبته لكن الله سلم فاكتفى خليفة بالسكوت كأنه لم يسمع شيئًا، فانتهزتها حلاوتهم فرصة أخرى وزاغت من تلك المحطة المزدحمة بالغمام، وانتقلت سريعًا إلى محطة حتمية من الأسئلة، فسألته برفق تحسبًا للمحطات الحتمية من الأجوبة، وحتى تحافظ على حالته الهادئة التي لا تدوم:

- ستذهب إلى السرايا؟

التقط خليفة العمامة وأحكم وضعها على رأسه، ورد بغلظة:

- سأمر على الأرض ثم أقابل الخولي.. لديه بيعة للجمل..

على ذكر بيع الجمل، انفتح الباب لهمٍّ آخر، تجهمت حلاوتهم، وتذكرت الشقاق بينه وبين سلامة وبحر، والذي سيزداد بتلك الفكرة المتهورة، فقالت بلطف:

- الجمل عزيز على النوحية يا أبا بشر.. وثمنه لن يقدم ولن يؤخر..

تمالك خليفة أعصابه، وكان كريمًا معها للنهاية:

- الحال كما ترين.. دبري لي أنت يا ناظر النوحية.. الجمل صار عجوزًا وسيكون عاطلًا طيلة الشتاء.. والقرش شحيح والأرض كعدمها..

سكتت حلاوتهم برهة تجهز جملتها التي تعلم أنها قد تثير غضبته، لكن ليس من قولها بد:

- أخشى غضبتهما..

التفت خليفة إليها غاضبًا، فهو يعلم إلى من يعود ضمير المثنى، فكظم غيظه وأطلق كلماته بصوت حانق خافت:

- هذه أملاكي وأملاك عبد المولى لا دخل لبحر ولا لسلامة فيها ولا حتى لحمزة النوحي..

رضيت حلاوتهم بهذا القسط من الحوار، وأغلقت بابه بهدوء قبل أن يرفع صوته أكثر فتسمعه بحر:

- التدبير لله يا أبا بشر.. إن شاء الله سيعدلها..

ضبط خليفة عمامته أمام المرآة، ثم تذكر ابنته الغائبة:

- أين الجازية؟

- ذهبت مع ابنة عمها تملآن البلاليص..

- انتبهي لها هذه الأيام.. البنت لم تعد صغيرة..

- لا تخش على الجازية.. إنها صارت مثل أبيها..

تبادلا نظرات كلاهما يعرف ما وراءها، ثم ألقى خليفة الشال على كتفه، وقال وهو يدس قدمه في بلغته:

- أنا أعرف مصلحتها جيدًا أيها الواعظة..
- مصلحتها مع ابن حمزة..
- مصلحة النوحية في السرايا والدوار..
- السرايا والدوار يكرهان النوحية..
- لأنهم حنابلة أغبياء.. الكبير ظن نفسه سعد زغلول فألقوه خلف القضبان، والكفيف يناطحهم من أجل بضعة أفدنة لا تساوي شيئًا في أملاك الباشا..

ثم قطع حديثهما صوت بحر من حجرة الفرن تنادي ساخرة وكأنها تسمع حديثهما:

- حلاوتهم هانم.. عندما ينتهي حديثك مع «البك» تذكري أن خادمتك بحر تنتظرك أمام الفرن!

كتمت حلاوتهم ضحكتها، وانصرف خليفة حانقًا..

(٤)

على شاطئ الترعة وبجوار «جنينة الموالح»، انتشرت أشجار الجميز والتوت، وانتشر البنات بطول الشاطئ يغسلن ويثرثرن ويتشاكسن في أمان؛ حيث لا يجرؤ الرجال أن يقتربوا من هناك في مثل هذه الأوقات.

وعلى طرف قريب احتلت الجازية وابنة عمها، أسفل شجرة التوت على الدرجة الأولى لأحد السلالم الحجرية الموصلة للترعة، والتي

يهبط البنات من خلالها ليملأن الجرر أو يغسلن الآنية.. كشفت كل منهما عن ساقيها البيضاوين مدعية أنها تقي ملابسها من البلل، لكن كل منهما بشكل غريزي تقدم للأخرى دليل جمال، وأنها الأحرى من الناحية الشكلية بابن حمزة محل النزاع غير المعلن.

ألقت الجازية بحصاة في الماء، فصنعت دوائر صغيرة ثم أكبر فأكبر، بعد صمت برهة، التفتت الجازية إلى ابنة عمها تسألها:

- هل تظنين أننا سنعود في يوم إلى الدوار؟

ابتسمت فاطمة ساخرة من سؤال ابنة عمها المتكرر، فانشغلت عنها كي تبدي تفاهة السؤال، فأرسلت بصرها في سطح الماء الساكن، والذي أحيانًا ما يستخدمه بنات الشاطئ كمرآة، فضبطت فاطمة غطاء رأسها، وتحسست وجهها القمري الذي تغلب به الجازية إذا ما تنافستا، فتضايقت الجازية من تجاهلها، وألقت بحصاة في اتجاه المرآة فحطمتها إلى دوائر، فالتفتت لها فاطمة في هدوء:

- نعود أو لا نعود.. المهم أن نظل النوحية..

لوت الجازية عنقها ساخرة من إجابة متوقعة تراها فلسفية باهتة، أو تراها منطقية لكنها تريد أن تقنع نفسها بشيء آخر حتى تريح ضميرها:

- وهل بعد ذهاب العمودية بقي النوحية نوحية؟!

- حمزة النوحي داس العمودية بحذائه كي يظل النوحية نوحية.. وداس على ناظر الباشا بحذائه عندما تطاول على النوحية..

ابتسمت الجازية ابتسامة ساخرة استفزت ابنة عمها، فعدلت فاطمة من جلستها وتراجعت إلى الخلف قليلًا، كي تواجه سخريتها، فتابعت:

- العمدة بعد حمزة صار ذيلًا تافهًا للباشا والإنجليز ومأمور المركز.. سكناته بإذن وحركاته بإذن، أي فخر لمثل هذا! الناس تمدحه في وجهه وتلعنه إذا خلوا.. ووريثه الأحول أضحوكة «عزبة نوح»..

ثم ضحكت فاطمة على ذكر الأحول، وقالت:

- إنه أشبه بالمعاقين!

تبرمت الجازية من جملة فاطمة الأخيرة وبدا عليها التوتر، وشعرت كأن ابنة عمها تلمزها من بعيد، لكن الجازية أخفت ضيقها بضغطة على فكها، ثم ألقت بحصاة ثالثة إلى الماء، وفاطمة تابعت غير آبهة بمزاج الجازية الذي بدأ يشتعل:

- إذن نعود أو لا نعود لا يهم.. ما يهم أن نبقى ملجأ الناس ومنجاهم.. ألا ترين أن الباشا والمأمور والعمدة الجديد لا يزالون يخشون النوحية رغم ما حل بهم.. ألا تسمعين الناس وهي تتحدث عن عمك الغائب الحاضر ويدعون الله أن يفك كربه ويسمون أطفالهم باسمه!

تباسمت الجازية، وقالت بغيظ:

- نصف كلامك منقول عن عمك السجين.. والنصف الآخر عن عمك الكفيف!

التفتت لها فاطمة منزعجة من طريقتها في وصف عميهما، لكن الجازية لم تأبه لانزعاجها، واستطردت تكمل بحدة، كأنها وجدت فرصتها للنيل من ابنة عمها التي تظن نفسها حامية حمى النوحية وتاريخهم:

- ألا ترين أيها الساذجة أن النوحية الآن لا يملكون المال كي يعالجوا أباك المريض؟ وأن النوحية لا يملكون المال كي يزوجوا بناتهم زيجة مستورة؟ وأن النوحية لا يملكون المال كي يجددوا سقف الدار وطلاء الجدران ليحمونا من قطرات المطر وبرد الشتاء؟ وأن النوحية لا يملكون القوة كي يدافعوا عن الفلاحين الذين يسرق العمدة والباشا ويعقوب أراضيهم نهارًا جهارًا؟

ثم صاحت متناسية أنها على شاطئ الترعة:

- عن أي نوحية تتحدثين بعد ذهاب كل هذا أيتها البلهاء؟!

التفتت لهما بعض الفتيات المتناثرات حولهن خاصة المتنصتات.. غلى الدم في عروق فاطمة، فانتصبت قائمة، وقد استفزتها لهجة الجازية وجرأتها على النوحية، فلم تتمالك هي الأخرى نفسها، فصاحت فيها:

- أتحدث عن حمزة النوحي صاحب الصيت والسلطان حتى وهو بغير سلطان.. أتحدث عن بحر الحرة التي جعلت من دارنا دوارًا وأصلحت ما أفسده غيرها.. أتحدث عن سلامة الكفيف الذي وقف أمام الباشا ويعقوب، ولم يفرط مثلما فرط غيره من أجل دوار العمودية أو طربوش البكوية.. أتحدث عن صالح بن حمزة..

وعلى ذكر صالح، خفضت فاطمة صوتها، وهي تقول لها كأنه تشيكها لتوقظها:

- زوج المستقبل الذي لا تستحقينه..

تابعتها فاطمة لترى رد فعلها على كلامها، وجملتها الأخيرة بشكل خاص فهي بيت القصيد ومربط الفرس.. تغير وجه الجازية وانتصبت هي الأخرى قائمة في مواجهة فاطمة، فبدتا وكأنهما على وشك معركة، لكن الجازية تحكمت في نبرة صوتها جيدًا ودلفت من الباب الذي واربته فاطمة، ودنت منها تهمس لها بسؤال في ثوب إجابة أو إجابة في ثوب سؤال فغيرت مجرى الحديث والمعركة، فرجحت كفة الجازية رجحانًا تامًّا، فألقت بابنة عمها الطيبة من النهر إلى البحر، وقفزت من حديث العقل إلى حديث القلب، فقالت بصوت له مغزى، كأنها تعبث في جرح لم يطب، وذلك انتقامًا لتعريضها بأبيها:

- أنت تحبين صالح يا فاطمة..

انزعجت فاطمة من الجملة لا تدري أجادة هي أم مازحة، أتسألها أم تخبرها.. بلعت لعابها، بدت على وجهها ابتسامة بلهاء مترددة بين

الجدية والهزل، ففاطمة لم تكن تتوقع أن تلقيها الجازية بذلك الاتهام علنًا هكذا، لكنها حاولت أن تحافظ على حالها حتى لا يفتضح أمرها فهي العاقلة الرزينة، فتصنعت الثبات وتعاملت مع قنبلة الجازية كأنها عود ثقاب حتى لا تؤكد لها شكوكها، فعادت إلى جلستها الأولى كنوع من الهروب الجسدي، وحاولت في ثوان أن تجمع شتاتها، ثم قالت:

- ما هذا الكلام الأحمق! أنت خطيبته..

جلست الجازية ثانية بجوارها مصرة أن تواصل اللكمات وتكشف ما تخبئه من سنوات، رغم أنه معلوم على الأقل للجازية، فقالت:

- أولا أنا لست خطيبته إنها فاتحة قديمة ونسيناها.. ثانيًا، وهذا معلوم لدى خبثاء النوحية وطيبيها، أنت شريكتي فيه منذ البداية.. منذ أن كنا صغارًا نلعب هنا في هذه الجنينة..

زاد ارتباك فاطمة وندمت أنها فتحت تلك الصفحة، وندمت على دفاعها عن النوحية وهجومها على عمها خليفة، وأوشكت أن تعلن استسلامها لابنة عمها القاسية، وتعتذر لها عما بدا منها لكن فات الأوان.. ارتخت أطرافها فلمست أصابع قدمها الماء على غير إرادتها، فلسع الماء البارد أصابعها فسحبت قدمها مرتبكة، فزادت رعشتها.. همست لها الجازية لتزيدها اشتعالًا:

- أنا تنازلت لك عنه.. ما رأيك؟

داخت فاطمة من تتابع اللكمات، وغرقت في مشاعرها المختلطة، ولم تعثر على جملة مفيدة تخرج بها من هذا المأزق، هذا إذا اعتبرته مأزقًا، فهداها تفكيرها إلى خروج شبه مناسب، فمدت يدها إلى الماء واغترفت بكفها ورشت ابنة عمها، فانتفضت الجازية وانتصبت من مس الماء، فتضاحكت فاطمة واغترفت أخرى لترشها عليها، فجريت الجازية هاربة أمامها، والفتيات يتابعنهما دهشات..

***

في مقابل الباشا، جلس شاب أسمر قصير خلف المكتب غارقًا في جلبابه عيناه زائغتان قلقتان لا تكادان تثبتان في اتجاه، نهض الباشا من على كرسي مكتبه وهو يشعل سيجارًا، فانتصب الشاب القصير احترامًا فأشار له الباشا بالجلوس فجلس:

- ستقتل صالح..

بلع الشاب لعابه وقال مترددًا:

- ولكن ثأري مع أبيه حمزة..

- لهذا ستقتل الابن..

لم يستطع الشاب تفسير رغبة الباشا في قتل صالح رغم أن عداوتهما مع حمزة، ثم لم ير بدًّا من موافقته، فهز رأسه بالإيجاب:

- كما ترى جنابك..

(٥)

عادت حلاوتهم لمقرها شبه الدائم أمام الفرن، وعادت زينب لـ«طقطوقتها»، لكن هذه المرة راعت المطربة خفض صوتها أكثر حتى تهرب من المراقِبة التي يسمعان وقع أقدامها بالفناء.. هزت زينب رأسها يمينًا ويسارًا هاربة من الألم إلى الطرب:

- الأوله آآآآه

رمقتها حلاوتهم معجبة بآهتها، ثم علقت مشجعة:

- اللـااااااااه

واصلت زينب:

- الأوله آآآآه.. وأنا لسه صغار في عيييييلة..

قطعت زينب جملتها، تتحسس ظهرها وسكتت قليلًا تلتقط أنفاسها، وتتأكد أن ما تشعر به في ظهرها وجع كاذب.. انتبهت بحر الجالسة عند الموقد في الفناء لسكوت ابنتها، فهي تسمعها جيدًا بل هي مستمتعة بموالها.. لحظات وعادت زينب بسلام إلى وصلتها:

- وحملي عن ضهوري مال وزاد شيييييله..

أصاب صوت زينب وكلماتها قلب بحر فاهتزت أطرافها وأسلمتها أذنيها لها، ثم استرخت في مكانها وألقت بظهرها إلى جدار الحاصل، وقد اشتعلت شجونها ومال الحمل عن ظهرها فأطل ما سكن من ذكرياتها، فقالت تدندن مع ابنتها وهي تهز جزعها مستغرقة:

- أتن أقول آآآآه

داعبت ذكرى حمزة النوحي خيال بحر فاتسعت عيناها كأنها تدقق في صورته، ودت أن تراه كما كان منذ سنوات، ذلك الأسمر الضخم الغضوب العنيف المهاب، ودت أن ترى سوطه الشهير وهو يضرب به الهواء فيرهب الأغبياء، ودت أن تسمع صوته الذي كان يهز «عزبة نوح» ويسمعه الباشا في سراياه، لكنها رأته عجوزًا قارب السبعين قعيدًا هادئًا ساكنًا ملقى خلف القضبان، فاستنكرت الصورة وعبرتها سريعًا بالتواطؤ مع الخيال، ثم مرت صورة الدوار خاطفة أمام عينيها، لكن بحر لم تدعها تمر مر الكرام فتشبثت بذيلها وأعادتها إليها مدققة.. دارت حول الدوار من الخارج، قد ازداد أبهة وجمالًا.. العربة «الكارتة» رابضة أمام الباب، وفرس حمزة السوداء تتبختر أمام الدوار وتأكل من الحشائش وتضرب بقدمها الأرض وتصهل سعيدة عندما ترى حمزة قادمًا من بعيد.. ابتسمت بحر واسترخت أكثر مستسلمة للصور التي تداعت.. أولاد النوحية يتشاكسون في الجنينة ويتقاذفون البرتقال.. الجازية وفاطمة تتشاجران على برتقالة وصالح يجلس قريبًا منهما هادئًا يرقبهما مبتسمًا.. اقتربت بحر من باب الدوار دفعته لتدخل، فتحت الباب فلفتتها النخلة في الفناء، فامتزج الخيال بالواقع فانقطع حبل فكرها وعادت إلى فناء دارها؛ حيث النخلة العجوز أمامها منتصبة وسط الفناء، فتعلقت عيناها بالنخلة، فارتدت الذاكرة إلى الوراء فتمثل لها حمزة النوحي غاضبًا ثائرًا يلوح بسوطه ويضرب زبيبة «النذل» أمام أعين الناس..

طالت آهة زينب وانسجمت معها حلاوتهم..

- يا عيني يا كروان!

أعادت زينب جملتها بنفس الجمال:

- أتن أقول آآآآه

أتن أقول آآه تبرى جراحاتي

وأهون الحزن وآسفُّه بلوحاتي

وأكتم المر لا يطلع أسى منه

ويشمت عزولي من بعد راحاتي

وأتن أقول آآآآآه

طالت الآهة وازدادت جمالًا فزادت إيلامًا، لكن لم تلبث آهة الغناء أن تحولت إلى آهة أخرى.. فسقطت قطعة العجين من يد زينب، فانتبهت بحر للتحول المفاجئ في آهة ابنتها فنفضت صور الماضي سريعًا، والتفتت قلقة ناحية حجرة الفرن دون أن تقوم من مكانها.. قالت حلاوتهم لزينب في نصف اهتمام:

- ما لك يا بنت بحر؟

انتظرت بحر رد ابنتها لتطمئن، فأجابت زينب بجدية:

- ظهري يشتعل نارًا.. أشعر أنه الطلق.. سألد يا عمة..

- بل أنا من سألد..

علقت زينب بضعف ساخرة:

- ولِمَ لا يا عمة.. وهل كبرتِ؟ أنت بالكاد في عمر أمي..

ابتسمت بحر المتابعة من بعيد، وقد اطمأنت وانتظرت رد حلاوتهم.. أثارت الجملة غضب حلاوتهم، فجذبت «حواية» القش وألقتها في وجه زينب:

- اخبزي يا بنت بحر.. الملافظ سعد

تلقت زينب الضربة ضاحكة.. وابتسمت بحر على ضحكهما، ثم صاحت:

- اعملي لك همة يا هانم أنت وهي..

سكتت زينب، وكتمت حلاوتهم ضحكتها، وارتدت بحر لآلامها وشجونها تفكر في الدار التي خلت من ناسها وأنسها، وفي ولدها صالح الذي أخذته المدينة كما أخذ السجن أباه، فلا تلقي به كل عام إلا مرة أو مرتين، وأطلت دمعة من شرفة عينيها، ثم همست تحدث نفسها:

- طالت غيبتكما..

أفاقتها حشرجة عبد المولى التي غالبًا ما يصدرها استعداد للقيء، وتذكرت ضيفهم الشيخ سلامة التي تؤنسها جلسته ونكاته ويذكرها بزوجها، فأغلقت عينيها وأبطلت مفعول الدمعة قبل أن تنفجر على خدها، ثم تنهدت تنهيدة طويلة، ثم أخذت نفسًا جديدًا وانتصبت بنشاط وتحركت نحو حجرة عبد المولى.. لمحتها حلاوتهم مارة من أمام حجرة الفرن، فهمست لزينب:

- أكملي يا ألمظ.. الخولي دخل

لكن قبل أن تعاود زينب غناءها، سمعتا طرقات على الباب الخارجي، وصوت طفل ينادي:

- يا خالة بحر..

التفتت حلاوتهم:

- تعال يا من تنادي..

دلف طفل صغير إلى الفناء متجها مباشرة ناحية الفرن، يضم إلى صدره مظروفا أصفر، التفتت له زينب، وهي تنظر للمظروف باهتمام:

- مرسال من مصر يا خالة..

***

جلس خليفة مقابل سلامة على الفراش عند رأس شقيقه يتحسس وجهه ويمسح العرق عن جبينه، ويهمس له:

- ستفرج الليلة وسنذهب الليلة إلى المستشفى..

شد عبد المولى بوهن على يد أخيه وهو يأخذ نفسه بصعوبة:

- لا تحمل همي يا خليفة.. لكن لا تبع شيئا آخر

اغتاظ خليفة من نصيحة عبد المولى التي جاءت في غير وقتها وغير مكانها، ووجدها سلامة الصامت فرصة جيدة لإلقاء شيء مما يعبئه في صدره:

- نصيحة متأخرة..

تململ خليفة في جلسته وأحس أنها بداية سيئة ستجر وراءها موشح تبكيت وعتاب، فلا يجتمع الاثنان إلا وكان الشجار ثالثهما، ولحسن

طالعه دلفت بحر هي الأخرى وقد سمعت الجملة الأخيرة من سلامة، فهاهو قد اكتمل نصاب المعركة.. جلست بحر وسحبت صينية الأرز لتكمل ما بدأته.. وعليه آثر الخليفة الانسحاب قبل تطور الحوار، فلو فتحا الحديث عن أرض النوحية المباعة أو تلك المعروضة في مزاد الباشا ويعقوب، ستنشب المعركة لا محالة، فانتصب خليفة وتحرك خافًّا مرتبكًا نحو الباب متحاشيًا النظر ناحية بحر:

- السلام عليكم..

قبل أن يصل باب الحجرة تعثر في طرف الحصيرة، فكاد يسقط على وجهه، لكنه ألقى بنفسه على الجدار، فقالت نجية تدركه بدعائها:

- الله أكبر! انتبه يا أبا بشر

ثم علق سلامة ساخرًا، وقد أدرك ما حدث دون أن يراه:

- أيضًا نصيحة متأخرة!

لم تخف بحر سخريتها وحنقها وهي تتابع خليفة الذي انصرف متوترًا.. ساد الصمت قليلًا.. أغمض عبد المولى عينيه يحاول أن يدخل في إغفاءة تخفف عنه آلامه.. فانتصب الشيخ سلامة هو الآخر هامًّا بالانصراف:

- أترككم أنا الآخر وسأعود ليلًا إن شاء الله..

- لا يزال الوقت مبكرًا يا أبا عبود..

شرد سلامة عندما سمع كنيته التي لم ينادها به أحد منذ وفاة زوجته وهجرة ابنه، ثم أفاق:

- سأدرك العصر في المسجد الجديد..

انصرف سلامة.. وساد الصمت برهة.. تململت بحر في جلستها فهي تخشى لحظات الصمت هذه، وتعرف أن معها تأتي المفاجآت.. ثم قطع صمتهما زغرودة زينب من البهو.. فانتفضت بحر واقفة، فكادت الصينية تسقط من بين يديها:

- زينب تجننت!

ظهرت زينب عند باب الحجرة تسند ظهرها بإحدى يديها، وقد ارتفعت بطنها إلى الأمام، وفي يدها الأخرى الخطاب:

- صالح في الطريق يا بحر..

(٦)

طريق ترابي متسع تحفه الأشجار من جانبيه، وترعة «نوح» توازيه، تنتشر فيه التعرجات والمرتفعات والمنخفضات بفعل الأمطار، وفي مناطق منه انتشرت مستنقعات صغيرة مستديرة ومستطيلة تجمعت فيها المياه..

صالح بن حمزة النوحي شاب أسمر نحيف طويل، يشبه أباه في البشرة وأمه في القوام قد قفز إلى منتصف العشرينات، وقد غطى الطربوش نصف جبهته، لكن مع ذلك تظهر خصلة من شعره الناعم، أحكم إغلاق الجاكت الصوفي الرمادي استعدادًا للاشتباك مع برد «البحيرة» القارص، ويحمل في يده حقيبة سانسونايت عريضة محشوة بكتبه

وملابسه وبعض أدواته الطبية، ويحمل في يـده الأخـرى قنـديلًا يشـعل بالغاز ويسمى «الكلوب».. وبجواره يسير عبود بن الشيخ سلامة القادم معه من القاهرة بعد طول غياب أو طول هروب، وهو في نفـس عمـر صالح تقريبًا، يرتدي نفس زيه تقريبًا، ولا يحمل في يـده سـوى نسـخة من إحدى المجلات.

سار النوحيّان ببطء شديد، ينظران أسفلهما أكثر مما ينظـران أمامهمـا؛ تحسبًا لمفاجآت الحفر و«الزحاليق» التي قد تودي بملابسهما وبالقنـديل، وتصعّب عملية دخولهما القرية بعد هذه المـدة، خاصـة البـاش حكـيم صالح ابن العمدة السابق..

توقف عبود أمام مسـتطيل مـائي طويـل يضـع خطـة لطريقـة عبـوره، ووقف صالح خلفه قليلًا ينظر إليه ساخرًا منتظرًا قراره الصعب، تقدم عبود خطوة ثم تراجع وهو ممسك ببنطاله.. لكن فاجـأه صـالح بقفـزة بجواره فتخطى الماء برشاقة، لكنه أصاب بنطال عبود برذاذ طيني فهـدم له هندامه، فصدم عبود وهمهم غاضبًا وهو ممسك ببنطاله:

- منك لله يا ابن حمزة.. ماذا فعلت!

انحنى عبود يمسح بنطاله آسفًا.. ومد صالح له يده يساعده على العبور:

- هيا أيها المتفرنج السمين..

مد عبود يده لصالح وعبر بحذر.. ثم حضرت صـالح فكـرة فشـرع في تنفيذها على الفور، فناول عبود القنديل:

- أمسك..

أخذ عبود القنديل، وهو ينظر إلى ابن عمه مستفهما ماذا سيفعل؟ فتح صالح حقيبته وأخرج جورنالًا قديمًا، ثم انحنى إلى حذائه، أدرك عبود نيته فصاح:

- ماذا ستفعل أيها الفلاح؟

- سنعود بالتاريخ إلى الوراء قليلًا.. سنخلع الأحذية ونشمر البناطيل..

امتعض عبود وأبدى استياءه من الفكرة:

- كلا بالطبع.. ماذا يقول عنا أهل العزبة! لا تشوه تاريخ العائلة..

قال صالح ساخرًا:

- تشمير البناطيل لا يشوه التاريخ يا ابن الشيخ، ولكن خلع البناطيل هو الذي يفعل..

انزعج عبود من تهكم صالح، فقال جادًّا:

- أنت بالطبع تقصدني بهذه الجملة..

- هذه فلسفتك..

- الصياغة مختلفة تمامًا.. بل قد تفهم بشكل آخر تمامًا

- ليس تمامًا..

- أنا فلسفتي انحن للريح.. انظر إنها جملة بها شياكة..

هز صالح كتفيه باسمًا:

- نفس المعنى..

تضايق عبود وأشار بأصبعه محذرًا:

- لا تجعلني أندم على عودتي..

ضحك صالح، وأعلن انسحابه:

- أعتذر وأسحب كلمتي من أجل الشيخ سلامة..

ثم انحنى صالح على بنطاله وثنى طرفه بسرعة ومعه السروال الرمادي الصوف حتى قبيل ركبته، ثم خلع حذاءه الجلدي الأسود، والذي كان أبيض قبل أن يهبط من القطار، ثم لف صالح الحذاء بورقة الجورنال.. وعبود يتابعه ساخرًا:

- عجبًا.. فلاح قح سيصير طبيبًا بعد أيام!

انتهى صالح من مهمته، ودس أغراضه في حقيبته، ثم مد يده لعبود ليتناول القنديل، ويعطيه فرصة للتقليد:

- أرنا بياض رجلك يا ابن الشيخ وانحن للريح وشمر بنطالك!

هز عبود عنقه مصرًّا على الرفض:

- كلا لن أتصرف هذا التصرف الهمجي..

استدار صالح ليستكمل مشواره غير عابئ برفض عبود، وأراد عبود أن يسير خلفه، لكنه توقف قليلا وأطرق يفكر في تغيير القرار، فقد أدرك

أن خطة صالح هي أخف الضررين للوصول أسرع وللحفاظ على الأحذية والملابس، فنادى صالح:

- أعطني دقيقة أيها الفلاح!

التفت صالح ساخرًا:

- أسعف جناب البك.. بحر هانم في انتظاري

عبود وقف مترددًا، ثم انحنى مضطرًّا، يثني البنطال بتأن، ثم توقف ورفع رأسه شاردًا فيمن ينتظره هو الآخر:

- أعتقد أن الشيخ قد نسي أن له ولدًا..

- بل أنت من نسيت أن لك أبًا..

انحنى عبود ثانية إلى البنطال وهو يقول:

- إنه لا يزال يعيش في زمان حمزة..

نظر إليه صالح معاتبًا، شعر به عبود فرفع قامته يوضح:

- لا تهرب من الواقع.. زمان حمزة ولى منذ زمن.. والشيخ سلامة لا يزال مصرًّا أن يحيا في عباءة مهترئة..

أراد صالح أن يرد، فاستطرد عبود يوضح موقفه أكثر:

- إنني أكره المشاكسة مع القوي.. لا أحب المواجهات الخاسرة..

- فآثرت الهروب..

فتباسم عبود وبلع همه، وانحنى ثانية يكمل تشمير البنطال، يخلط جديته بمزاحه:

- كلا يا فلاح.. بل آثرت الانحناء..

(٧)

قطع الشيخ سلامة المسافة إلى أرضه وكوخه مدندنًا بما يحفظ من القرآن، تاركًا شأن الطريق لأتانه الخبيرة.. اخترقت الأتان جنينة الموالح كما تعودت، فتح الشيخ سلامة صدره لرائحة البرتقال التي تدفعه دفعًا إلى الماضي القريب فتسكره فيهز عنقه مستمتعًا ويستزيد من العبير ويعلو صوته بالدندنة.. سارت الأتان بخفة على الممشى الذي يشطر الجنينة نصفين فهو ليس موحلًا كالطريق الخارجي، ثم انحنت يمينًا في ممشى صغير متفرع، صار شبه مخصص للشيخ سلامة فسمي باسمه، ثم خرجت الأتان عبر فتحة مستطيلة في سور الجنينة، فمرت قريبًا من مسرح البنات على شاطئ الترعة، ثم قطعت الطريق بالعرض متجهة إلى المعدية الخشبية المصنوعة من عدة نخلات، وهذه المعدية هي التي تفصل رسميًّا بين عزبة الباشا و«عزبة نوح».

اخترقت الأتان الغيطان حتى توسطت أرض النوحية ثم شقتها متجهة نحو الكوخ ثم توقفت.. تحسس الشيخ سلامة الأرض من أعلى بطرف عصاه، ليس شكًّا في خبرة الأتان، بل ليؤمّن موضع الهبوط، ثم نزل بأمان، ثم مشى خطوتين وانحنى إلى الأرض يتحسس المكان أسفل

جدار الكوخ يبحث عن وتد الأتان، وجده سريعًا، فسحب الخطام وربطه في الوتد بإحكام، ولولا خشيته من اللصوص لترك أتانه سائمة فهو يثق في وفائها له، وهي ليست في حاجة إلى هذه الاحتياطات التقليدية.

اشتم سلامة رائحة غير مريحة يعرفها جيدًا، فحك أنفه وقلب وجهه مستقذرًا، لكنه لم يهتم واستدار وفك أربطة البردعة من على بطن الأتان المتعرقة، فأثارت الرائحة أنفه أكثر، لكنه اكتفى بالتأفف وحك أنفه ولم يهتم، ثم حمل البردعة وألقاها داخل الكوخ، ثم استدار وسار خطوات بعيدًا عن الأتان فالتقط الرائحة بشكل أقوى، إنه يميزها عن رائحة معجنة الطين التي تعفنت بجوار المسجد، بل هي أشد منها، تيقن من مصدر الرائحة، فالتفت إلى جانبه وقال:

- أراك جيدًا أيها النجس!

فوجئ يعقوب الواقف قريبًا منه بحدس الأعمى، فبلع لعابه فرقًا ثم تراجع خطوات، وقال متهتهًا خائفًا:

- جئت أحذرك للمرة الأخيرة..

يعقوب كهل في الخمسين قصير سمين، لا يُعرف له لون بشرة، لكنها تميل إلى لون التراب فهي لا تعبر عن لون جلده كسائر البشر، بل عن لون الأوساخ المتراكمة، ليس له أصل أو نسب في «عزبة نوح»، كل بياناته التي يعرفها الناس أنه صديق مقرب للباشا بصفته ناظر عزبته

المخلص، والذي يعمل جاهدًا على ضم «عزبة نوح»، والتي لا تتعدى مائتي فدان، إلى عزبة الباشا الفسيحة.

عدل يعقوب طاقيته الممزقة على رأسه المستديرة فبرزت أذناه الكبيرتان وحك أرنبة أنفه في انتظار رد سلامة.. لكن سلامة لم يرد بل انحنى بخفة على كومة طوب لبن تم ضربها بالقالب منذ أيام ومعدة لإتمام جدران المسجد، فالتقط القالب بخفة واستدار وقذف به ناحية يعقوب، فقفز بعيدًا يتفادى القالب، ثم صاح:

- ماذا تفعل أيها الأعمى؟

أدرك سلامة أن القالب لم يصبه لكنه كاد، فانحنى بخفة مرة ثانية، فالتقط قالبًا آخر وألقاه ناحيته، لكن يعقوب كان أكثر استعدادًا فانحنى وتفاداه ثانية، ثم تراجع بظهره استعدادًا للهرب، وهو يهمهم:

- أيها المخبول.. لن تهنأ فيها..

ثم استدار منصرفًا، لكنه فوجئ بالقالب الثالث يصافح قفاه، فانتفض صارخًا وأسرع هاربًا وشيعه سلامة بالسباب واللعنات..

***

اتجه سلامة ناحية مسجده الذي بني بعضه بالطوب وتم استكمال الباقي بالبوص لحين الانتهاء من ضرب الطوب؛ حيث عطلهم المطر عن الاستكمال.. دلف سلامة من الباب وهو عبارة عن فتحة دون ساتر لها.. المسجد واسع، جزء منه مفروش بحصائر

جريد والجزء الآخر بلا فرش، مسقوف بأفرع الشجر والبوص وقش الأرز، يوجد في مؤخرته ناحية الجدار البوص أوعية فخارية بها ماء تسمى «شوالي» للوضوء، قطع الشيخ سلامة باحة المسجد حتى وصل إلى السلم الخشبي الذي صنعه أحد نجاري القرية مجانًا، السلم مسند إلى الجدار الأمامي ومنته إلى فتحة في السقف، صعد سلامة السلم حتى برز بجزعه على السطح استعدادًا لإعلان النداء، فتقدم بعنقه قليلًا إلى الأمام، وتأخر بذاكرته قليلًا إلى الوراء...

في إحدى زياراته لحمزة السجين، حكى له عن محاولات الباشا ويعقوب المستميتة، وضغط أخيه خليفة عليه كي يترك ما تبقى من الأرض شمال الترعة في أجوار عزبة الباشا، ولو أرادوا إزاحته عنوة لفعلوا، ولن يثور من أجله الناس، فأشار عليه حمزة ببناء مسجد على رأسه:

- الناس لن يثوروا من أجلك يا سلامة.. ولكن سيثورون من أجل الله..

دار سلامة بجزعه على السلم كأنه يتشمم أرض النوحية المغتصبة والمبيعة، أحس بقطرات المطر تضرب برفق على عمته وجبهته، ابتسم متفائلًا، واسترخى ثم ملأ صدره بالهواء واستنفر عضلاته كأنه يستعد لمعركة، ثم وضع راحته على أذنه ونادى بصوته الندي:

- الله أكبر.. الله أكبر

(٨)

انقلبت حجرة الفرن، والتي كانت قاعة أوبرا منذ قليل، إلى خلية نحـل، وذلك بعد تدخل مباشر من الملكة بحر التي غمرتها فرحة كبيرة، كانـت تفتش عنها منذ شهور في أرجاء العالم الملبد حولها بالغيوم لتغسـل بهـا كآبة تلك الأيام، وتلتقط مددًا يعينها على القادم الذي قد يكـون أشـد وأسوأ إذا طال غياب زوجها خلف القضبان..

تناولت بحر المطرحة بنشاط، وجلست تلقم الفرن بخفة وتزيد فيه النار، ثم وضعت خرقة مبللة على رأس سيخ حديـدي (حديـدة الفـرن) إلى جوف الفرن، ثم مررت الخرقـة علـى قطعـة الصـاج «العرصـة» الـتي يوضع عليها رغيف الخبز، وذلك كـإجراء احـترازي لتنظيـف الموضـع ولسرعة إنضاج الرغيف، وأمام بحر جلست زينب وحلاوتهـم تفـردان لها العجين، وتسعيان أن تكونا عند حسن ظنهـا فيجارياهـا في حماسـها وسرعتها، حتى تنالا رضاها، لكن بحر التي لا يعجبهـا العجـب حتمًـا ستصيح وتشيح، ولن ترضى في كل الأحوال:

- هيا أسعفا أيتها الخاملتان.. نريد أن ننتهي من جولـة الخبيز هذه..

ثم عبرت بحر بطريقـة أخـرى عـن عـدم رضـائها عـن أدائهمـا المـائع المتخاذل، فألقت المطرحة بجوار الطبلية، ومدت يـدها تعلمهمـا كيـف تكون السرعة في الأداء..

- هكذا!

نظرت زينب لحلاوتهم دون أن تراها أمها، ولوت فمها ساخرة.. انتبهت لها بحر، فصاحت فيها:

- اعجني يا ...

استجابت زينب سريعًا مكتفية بالسباب وعادت للعجين تفرده بسرعة، ومن جهتها حاولت حلاوتهم أن تكتم ضحكتها الشامتة بيدها، فوضعت راحتها على فمها فرسمت شاربًا من الدقيق على شفتيها دون أن تشعر.. رأتها زينب فلم تتمالك نفسها فضحكت ضحكة مكتومة بأنفها فأخرجت صوتًا كسعال الشاة، فالتفتت لها بحر مقطبة، ثم لفتها منظر حلاوتهم، فلم تتمالك نفسها هي الأخرى، فابتسمت وهي تقول لحلاوتهم:

- مبارك الشارب يا عم حلاوة..

انفجرت زينب ضاحكة أكثر بعدما صار الضحك مباحًا بتصريح رسمي من ابتسامة بحر.. ارتبكت حلاوتهم واحمر وجهها غيظًا، وهي تحاول أن تمسح الشارب بكم جلبابها، لكن الرقعة ازدادت اتساعًا، فتركت حلاوتهم قطعة العجين وسحبت حواية قش من ورائها، وأرادت أن تقذف زينب بها لتنتقم، فصاحت زينب تستغيث بأمها:

- انظري يا بحر..

تراجعت حلاوتهم على الفور وألقت بحواية القش داخل الفرن، وحاولت بحر أن تعود لجديتها:

- أسرعا.. لا وقت لهذه الهيافات..

التوت قطعة العجين تحت كف زينب، فعادت تفردها في غيظ:

- وعلام العجلة يا أمي؟

بحر تستلم الرغيف من حلاوتهم على المطرحة، وتستدير لتلقم الفرن:

- أخوك عائد من سفر وجائع..

التوى الرغيف ثانية بين يدي زينب، فتعود لتفرده في ضيق، ثم ضربت عليه بقوة كأنها تعاقبه:

- يبيه! وهل العائد من مصر نطعمه «عيش بط»؟

- كفاك مناهدة.. قومي اغسلي الأرز وضعيه في «الأبرمة» وانفخي النار تحت الطير..

وضعت زينب العجينة المفرودة على المطرحة، وأعلنت رفضها بهدوء:

- لا أستطيع الانحناء إلى الموقد..

نظرت إليها بحر متبرمة من هروبها الدائم:

- خيبك الله.. كأنك أول من تحبل!

لم ترد بحر أن تدخل في حديث مع زينب لا ينتهي غالبًا إلا بكلمة نابية لا تريد أن تكررها، فانسحبت وألقت المطرحة على الطبلية، ونهضت:

- إذن تعالي مكاني لقمي الفرن..

همت بحر خارجة، لكن زينب لم يعجبها ذلك الاقتراح أيضًا، فاقترحت بديلًا:

- قومي أنت يا عمة حلاوتهم.. صدري لن يتحمل سخونة الفرن ثم برودة الجو هذا خطر عليّ..

التفتت بحر لها غاضبة، لكنها كظمت غيظها وخرجت لا تريد أن تفسد فرحتها بولدها، ولوت حلاوتهم فمها على الجنبين ساخرة، فقالت زينب تستنكر استنكارهما:

- ماذا؟ ألست حاملًا؟

ظلت حلاوتهم مكانها، ووضعت يديها في وسطها كأنها ابنة السابعة عشرة وهزت عنقها:

- لن ألقم الفرن عندًا فيك يا زينب..

تدخلت بحر من الخارج صائحة للمرة الأخيرة:

- قومي يا زينب..

مع صيحة بحر ينتهي الجدال، لأن ما بعد الصيحة يكون شيئا آخر، فقامت زينب متململة، وهي تهمهم:

- أعرف أنكما تغاران مني..

دست بحر أعواد الحطب في جوف الموقد، ورفعت صوتها بتعليق مازح على زينب، لترطب الجو ثانية:

- أنا لا أدري كيف يتحملك حسن الطيب الأمير!

انحنت بحر تنفخ أسفل الموقد، وردت زينب مستاءة، وهي لا تزال واقفة أمام الفرن:

- أحبيك يا أمي.. استمري في ترديد هذا الكلام أمامه حتى يظن نفسه الباشا..

حلاوتهم لا تترك مثل هذه الفرصة لتغيظ زينب بطبيعة الحال:

- الشهادة لله.. حسن جدع أصيل ومحترم.. زينة النوحية..

التفتت زينب إلى حلاوتهم، وهي تضع يمناها في جنبها كمسند لظهرها:

- إذن أنا غازية النوحية يا عمة!

هزت حلاوتهم عنقها بالإيجاب لتغيظها، وضربت بحر بأهداب ثوبها الفضفاض أمام الموقد، كي توري النار الخامدة:

- سأكون أول من يبارك له لو زاغت عينه على بنت الباشا..

جهزت زينب الرد لكن قوتها لم تسعفها للبوح، فقد منعها ألم ظهرها فتحسست جنبها كأنها تبحث عن شيء..

سادت فترة صمت..

قلقت بحر لسكوت زينب وانسحابها بهذه السهولة فتوقعت بعد الصمت مكروهًا.. فانطلقت صرخة زينب وسقطت أمام الفرن .

(٩)

هول فسيح وصالون يؤدي إلى صالون، تناثرت فيهما المقاعد الفارهة والمناضد والسجاد الأفرنجي، وكلبان صغيران استلقيا على الفوتيه يداعبان بعضهما ويتقلبان بنشاط على السجاد تارة والمقاعد تارة، وجراما فون عتيق قريبًا من الصفرة، وآخر بين البيانو والمدفأة، ومطبخ أوسع من «منضرة» النوحية، وسلم يتجه إلى الطابق الأعلى؛ حيث حجرات النوم والحمامات، وأسفل السلم «بار» فيه كافة أنواع المنكرات، وفي أقصى الهول تليفون عتيق يشبه الميكروفون، وأعلى التليفون سوط سوداني معلق بمسمار في الجدار.

وقف حسن بعيدًا قرب باب الدخول يعد السجاجيد الناعمة والمقاعد الفاخرة ويرقب بحسد الكلبين المنعمين اللذين بدوا أنهما يتعمدان إغاظته، في انتظار خروج الباشا من حجرة مكتبه التي يجري فيها حوارًا مع أحد المهمين، لعله المأمور أو أحد البشوات الأتراك، وقد يكون ضيفه هو العمدة الجديد لينهاه ويأمره ويسبه ويزجره، كما أراد أن يفعل مع حمزة النوحي.

بدا حسن ربعًا رشيقًا أبيض وسيمًا في كل تقاسيمه، وبحسب آخر النظريات النوحية وأحد استطلاعات الرأي لبنات «عزبة نوح» كان حسن بن عبد المولى هو أوسم رجال النوحية، بل «عزبة نوح» وأجوارها، وزاده رجولة ووسامة زي السائق الذي يرتديه؛ حيث جعله يبدو شبيهًا بضباط الإنجليز، والذي يجعل له هيبة تضاهي هيبة العمدة

الجديد، ويحسده عليها كل أهالي «عزبة نوح» و«عزبة الباشا»، فهو يعد أول من شغل تلك الوظيفة في الناحية وربما في القطر كله، ذلك بالإضافة إلى شهادة الابتدائية التي لم يحصل عليها إلا القليل في النوحية و«عزبة نوح»، واطلاعه على كتب عمه وابني عميه.

حاول حسن أن يتلهى في لحظات الانتظار التي غالبًا ما تطول، فمرة يعبث بمفاتيح السيارة التي في يده، أو يحرك الباريه يمينًا ويسارًا، أو ينشغل بتفقد مكان زعنفة شاربه الذي أصبح خاليًا بعد حفها منذ أيام رغمًا عنه؛ إرضاء لبنت الباشا التي أمرته بذلك مرارًا.

لفته السوط السوداني المعلق، وكأنه يراه لأول مرة، رغم أنه وقف في نفس المكان أكثر من مرة، دقق النظر ثم اقترب منه يتأكد، إنه بالفعل سوط حمزة.. ماذا أتى به هنا؟ وقف عن يساره يتفحصه ثم انتقل عن يمينه يتأمله، شيء بداخله حركه كي يلمسه إنه جزء من حمزة النوحي، بل هو جزء من تاريخ كبرياء النوحية.

لكن قبل أن تصل إليه يده فوجئ بخروج الباشا من مكتبه فسحب يده سريعًا والتفت ناحيته، فرأى الباشا خارجًا وخلفه الشاب الأسمر القصير، إنه ليس المأمور ولا باشا ولا العمدة الجديد، إنه ابن زبيبة النذل ناظر عزبة الباشا الذي جلده حمزة منذ أعوام حتى قتله.. صوب حسن فيه النظر ليتأكد أنه هو.. إنه بالفعل هو.. إنه غائب منذ أن مات أبوه، لماذا عاد؟

مع رؤية حسن صار وجه ابن زبيبة أكثر سوادًا، فارتبك وتلعثم، ثم هم منصرفًا:

- بالإذن جنابك..

أسرع ابن زبيبة خارجًا أو هاربًا، وحسن يتبعه بنظراته دهشًا، ومن ناحيته لم يكن الباشا هو الآخر مستريحًا لهذا المشهد، فحاول أن يصرف ذهن حسن عن أفكاره، فتبسط له الباشا بإجابة طويلة عن سؤال لم يسأله:

- يعمل لدي في وسية «إيتاي» ويأتي كل شهر يأخذ شهرية الأنفار.. أعلم أنكم تلقبون أباه بالنذل لكن هو ليس كذلك..

ثم متضاحكًا:

- إنه لص فقط..

حاول حسن أن يتباسم ليبادل الباشا حواره المتواضع، لكنه لم يستطع وظل شاردًا خلف شروده، فأردف الباشا جملة أخرى يجس بها أفكار حسن:

- أتخشاه على النوحية؟

فأفاق حسن:

- أخشى مَن؟

- ابن زبيبة..

- هو جبان مثل أبيه يا جناب الباشا.. لا يستطيع فعل شيء..

ثم انتبه حسن لجملة سقطت سهوًا من حواره، فأردف مضطرًّا:

- أيضًا نحن في رعايتكم جناب الباشا..

رأي حسن قريب من رأي عبود، فالانحناء وسيلة أسهل لنيل ما سقط على الأرض من الكبرياء، وطريق أقصر لتفادي ضربات الأقوياء، وفي ساعات الزلازل يجدر بالعزيز أن يدعي الرقص حتى لا يقال أنه تأثر بالزلزال.

استحسن الباشا الجملة الأخيرة، فحسن هو وسيلته المثلى للتشفي من حمزة الذي تجرأ عليه وغزا سراياه وجر مملوكه كالعنزة فأسقط هيبته منذ سنوات، فابتسم الباشا وتحسس كرشه الممتد أمامه، ثم سنده براحتيه حتى جلس مستريحًا على كرسيه، ثم أخرج سيجارًا وأشعلها، ووجدها فرصة للخروج من مأزق ابن زبيبة، فسأله عن جملته الأخيرة:

- هل هذا رأي النوحية؟ أم رأيك؟

فكر حسن قليلًا وبلع لعابه، حتى لا يقع في فخ من أفخاخ الباشا التي يصنعها دائمًا أثناء الكلام:

- رأي النوحية بالطبع.. بل عزبة نوح كلها..

سحب الباشا نفسا قويًا من السيجار ثم نفث في الهواء:

- حتى حمزة؟

سكت حسن برهة يخشى أن ينال الكلام من سيرة عمه العمدة السجين، لكنه لم يجد بدًّا من استكمال السير في طريقه المعتاد، فالكلام لم يعد له وزن، وصار مجرد سمر كأسمار النساء:

- حتى حمزة النوحي يا جناب الباشا..

صاح الباشا، وقد شعر أنه أوقع بحسن:

- إذن لمَ تحداني!

فزع حسن من صيحة الباشا التي تأتي دائمًا غير متوقعة، ولا يدري حاله حينها هل هو يمزح أم جاد.. استعد حسن للرد، فهمهم يستغفر في سره أولًا قبل أن يطلق الجملة الاضطرارية:

- ساعة شيطان يا جناب الباشا.. الغضب يغلب الرجال

ابتسم الباشا معجبًا بخروج حسن من المأزق، فعاد لهدوئه واستطرد:

- معك حق.. لكن ماذا لو كنت مكان عمك؟

فكر حسن قليلًا، ولم يجد هذا المقام مقام بطولة ما دام في نطاق الافتراض، فاستطرد مستمرًّا في التنازلات:

- كنت سأشكوه إلى جنابك بالطبع فهو أحد رعاياك.. وأنا أثق في عدالتكم..

ابتسم الباشا مزهوًّا بنفسه ومعجبًا بحسن:

- ليت حمزة كان يفكر مثلك يا حسن.. كان وفر على النوحية متاعب كثيرة..

ابتسم حسن نصف ابتسامة، وحاول أن يسترضي ضميره بجملة ينال فيها لعمه على سبيل الاعتذار، فقال:

- لو كان العمدة حمزة مثلي يا جناب الباشا.. ما نال شرف ترديد اسمه في سراياكم وقسم المأمور ودوار العمدة..

ثم قال بنبرة هادئة مستكينة:

- اطمئن يا جناب الباشا عمي الآن في سجنه.. ولم يبق في النوحية إلا أمثالي..

قطع حوارهما صوت التليفون المفاجئ، فتنفس حسن الصعداء سعيدًا بانقطاع الخوض في سيرة البطل، فلو استمر الحوار دقائق إضافية لكان مضطرًّا أن يخوض في النوحية جميعًا إرضاء لذلك الكرش.. انتقل الباشا إلى التليفون العتيق.. وعاد حسن لمحطة شروده ثانية، يفكر في ظهور ابن زبيبة المفاجئ ويحلل ورد فعل الباشا لدرجة أنه يتبسط معه ويبرر له سبب ظهور ذلك التافه.

ثم لفتته ساعة الباشا المتدلية إلى الخارج من جيب صديريته، فتذكر سببه وجوده الآن في السرايا.. فجأة صاح الباشا وانتفض معه كرشه، وانتفض معهما حسن:

- علمت أنه خرج أيها الأحمق..

- ....

- لا تفعل شيئًا سأفعل أنا..

ثم وضع السماعة بغضب.. حسن فضولي ذكي لكنه لم يفهم عمن دار الحوار، فعاد لما كان واقفًا من أجله:

- هل لي أن أستأذن بالانصراف جناب الباشا؟

- كيف حال أبوك؟

- على حاله جناب الباشا..

- أخبرني إذا احتجتم شيئًا..

- أدامك الله لنا جناب الباشا..

تقدم حسن نحو الباشا بالمفاتيح، فسلمها له فقبض الباشا على يد حسن كأنه يهدده:

- أخبر سلامة أن صبر الباشا قد ينفد..

هز حسن عنقه موافقًا ولم يشأ الدخول معه في حوار جديد، فاستدار متوجها بخفة ناحية الباب، قبل أن يدركه ما يخشاه، لكن قبل أن يصل إلى الباب بخطوة، كان صوت سوزان قد قطع عليه الطريق، فنادته من أعلى بدلال:

- أسطى حسن!

تسمر حسن مكانه يدعو الله في سره أن يخيب ظنه.. سوزان فتاة باهرة ملامحها غربية خالصة ولهجتها مصرية خالصة، في السابعة عشرة من عمرها، ارتدت فستانا شتويًا واسعًا وقفازين ملونين وعلى ظهرها فراء

ثمين وعلى رأسها برنيطة جوخ مكلفة بريش فبدا يقينًا أنها قد استعدت للخروج، لكن حسن يهرب من ظنونه ويستعيذ بالله من الشيطان، لكن سوزان أكدتها:

- أريدك في رحلة قصيرة أسطى حسن..

أغمض حسن عينيه كأن سحابة انفجرت فوق رأسه في ذلك البرد القارص، والتفت ببطء يخفي تبرمًا ويريد أن يعلن عصيانه، لكنه لا يستطيع بالطبع.. هبطت سوزان إلى البهو برشاقة.. انتظر حسن تعقيبًا من الباشا على هذه الفكرة المجنونة؛ فكيف ستسير بالسيارة في ذاك الوحل والجو غير المأمون، وبالفعل أبدى الباشا اندهاشه:

- ستخرجين الآن سوزان! السماء تمطر!

نظر حسن نحو الباشا مؤيدًا ومشجعًا كي يحول هذا الاستنكار النظري إلى رفض عملي، فأردف الباشا:

- ماذا ستفعلين في ذلك الوحل؟

أدارت سوزان حقيبتها في الهواء بسعادة، وقالت:

- أنا أعشقه يا أبي..

أثارت الجملة غيظ حسن واندهاش الباشا، فقال:

- الوحل؟

هزت سوزان رأسها مبتسمة:

- أشعر فيه بروح المغامرة وتحدي الطبيعة وجمال الكون.. أيضًا أنا حبيسة السرايا طيلة النهار

- رتبت حفل غد من أجلك..

- لا يكفي دادي.. أريد أن أشم نسيم الشتاء وألتقط حبات المطر..

تراجع الباشا عن موقفه الذي لم يتخذه:

- كما تشائين.. لكن لا تتأخري..

نفخ حسن بفمه دون أن يلحظه أحد، وسب الباشا وابنته في خاطره كعادته كلما ادخر كمية مناسبة من الحنق عليهما، ثم خلع الباريه كأنه يستعد لإلقائه في وجه سوزان أو الباشا، لكنه امتص كل ذلك بضغطة على فكيه كعادة النوحية عندما يغضبون.. ثم أعاد النظر إلى الباشا على أمل أن يرجع في كلامه ويتحرك فيه النخوة المصرية لكن العرق الغربي فيه طفح على الشرقي، ثم قطعت سوزان باب الرجاء وتقدمت نحوه سعيدة:

- ليتس جو أيها السائق الماهر..

تباسم حسن مرغمًا:

- ليتس جو سوزان هانم..

تحركا نحو الباب، وهي تمشي أمامه متبخترة.. صاح الباشا:

- المفاتيح يا حسن..

التفت حسن ليأخذها، فألقاها الباشا في الهواء.. دخل «يعقوب» فجأة بسحنته الكريهة إلى قلب حسن والنوحية وأهالي العزبتين، قد علق على كتفه حقيبته (المخلة) وبها بعض أدواته.. التقط يعقوب المفاتيح

مقهقها كأنه يداعبهما، فنظر إليه حسن حانقًا وبادله ابتسـامة صـفراء.. ثم جذب المفتاح.

(١٠)

صالح يقفز بسهولة على المستنقعات منتشيًا بقطرات المطر الخفيفة الـتي تداعب وجهه الوديع، وعبود يحاول أن يحمي نفسه من قطـرات المطـر بالمجلة التي بيده، وقبل كل خطوة يتحسـس طريقـه متأففًـا، ويحـاول أن يطوي الطريق باستجواب صالح المثير:

- حيرتني.. أيهما تريد؟
- لا أدري..
- كنت تتجهز للجازية..
- فجوات الزمن والمسافة والفكر تفعل الأفاعيل بالقلوب..
- لكنكما حبيبان بل ومخطوبان؟

انزلقت قدم عبود فترنح، فأدركه صالح بيده وهو يجيب:

- لسنا كذلك ولا كذلك.. لم يربطني بها إلا فاتحة أبي..
- وما يربطك بفاطمة؟
- فاتحة النوحية..
- ما دخل النوحية بمشاعرك؟
- طرف اشتركنا في عشقه..

أبدى عبود امتعاضًا من طريقة صالح الفلسفية التي يهرب بها دائمًا من أسئلته، فيجعل الحديث أكثر صعوبة وتعقيدًا، فتركه مغاضبًا كأنه يعلن مقاطعته، فانزلقت قدمه في المياه ثانية فأوشك أن يسقط فأدركه صالح ضاحكًا، فهمهم عبود حانقًا:

- منك لله أنت والنوحية!

(١١)

جثا يعقوب على ركبتيه أمام الباشا بطريقة تمثيلية مدهشة تروق للباشا ويستمتع بها، فتابعه الباشا وهو يخفي سخريته، وقلب يعقوب وجهه كما تعود إلى سحنة مغايرة تمامًا لطبيعتها، وجعلها في وضع استعداد للبكاء، وهو يناشد الباشا ويستعطفه:

- أرى الشر في عيون الفلاحين، أرى ما كنت أراه في عين حمزة!

ابتسم الباشا معجبًا بطريقة يعقوب المثيرة، وقال:

- رغم أنك قصير قبيح لكن تعجبني طريقتك في عرض أفكارك

فعدل يعقوب سحنته مؤقتًا كي يبدي امتنانه لإطراء الباشا فابتسم.. اتجه الباشا إلى الفوتيه وجلس بين الكلبين، ووضع أحدهما على حجره، ومد أصابعه يعبث بشعره في انتظار أن يكمل يعقوب مشهده المسرحي.. فانتقل يعقوب بخفة بين يدي الباشا حيث يجلس فجثا أمامه، فنبح في وجهه الكلب الصغير كي يبعده، فتراجع يعقوب فزعًا،

فضحك الباشا من هيئته الأراجوزية، ثم جذب الكلب إلى الوراء، فتقدم يعقوب ثانية ينتظر رد الباشا، فقال الباشا واثقًا:

- يا أحمق أفندي.. أنت أحد رجالي.. من يجرؤ على المساس بك؟!

سكت يعقوب برهة محاولًا حبس جملته الآتية، لكنها انطلقت:

- لا تؤاخذني جنابك.. فعلها حمزة من قبل في قلب السرايا..

بلع الباشا لعابه وسحب نفسًا عميقًا من السيجار ونفثه بغيظ، وهو يحاول أن يكتم الحريق بداخله حتى لا يبدو ضعيفًا أمام ناظر عزبته، أطرق قليلًا.. أحس يعقوب أنه تسرع كعادته فأراد أن يعتذر، لكن الباشا سبقه بالكلام:

- لذا فحمزة هو الخطر الحقيقي..

ضحك يعقوب ضحكة صفراء يريد أن يكذّب خاطرًا قفز إلى ذهنه بجملة الباشا:

- الخطر خلف القضبان جنابك.. إذن لا خطر!

- كلا..

جف اللعاب في حلق يعقوب، وهو يتوقع الكارثة، ونطق بصعوبة:

- كلا ماذا جنابك؟!

- خرج..

انتفض يعقوب وبدا كالممسوس:

- من؟ من الذي خرج جنابك؟

- حمزة..

انتصب يعقوب ودار في المكان، وهو يضرب على رأسه منتحبًا:

- يا خراب بيتك يا يعقوب.. يا خراب بيتك يا يعقوب!

صاح فيه الباشا يخرج ما يخبئه من قلق هو الآخر على هيئة صراخ:

- اصمت أيها الغبي.. دعني أكمل!

سكت يعقوب مضطرًّا، وهو لا يزال يهز جسده كما تفعل النادبات، انتظر الباشا كي يتحدث، لكن الباشا تشاغل بسيجاره الثالثة، يحاول أن يخفي توتره لكنه يبدو في أصابعه، فدنا منه يعقوب راجيًا:

- دبر لي.. ماذا سنفعل؟

نفس الباشا دخان السيجار في وجه يعقوب، ثم قال هامسًا:

- سنتخلص من كابوسه إلى الأبد..

انتبه له يعقوب وبدأ يعود لهدوئه ليستمع، واستطرد الباشا:

- ابن زبيبة له ثأر عنده..

فكر يعقوب قليلًا، ثم مسح العرق الذي رشح على وجهه، ثم هز عنقه موافقًا، راجيًا منه المتابعة حتى يستوعب، فوضع الباشا رجلًا على رجل ليظهر الثبات:

- قررت اليوم أن يأخذ بثأره..

فتدخل يعقوب متعجلًا باشًّا كأنه قد فهم:

- سيقتل حمزة..

- غبي..

بلع يعقوب لعابه وراء الإهانة كعادته، وعاد لصمته ليستمع إلى خطة الباشا:

- لو قتلنا حمزة سيتحول إلى أسطورة في «عزبة نوح» وأجوارها وحكاية تحكى للكبير والصغير.. وسيتحول ابنه الطبيب إلى طالب ثأر، وحمزة جديد، وأدهم شرقاوي جديد..

تابعه يعقوب غير مستوعب، يريد مزيدًا من الإيضاح، فاستطرد الباشا:

- لكن إن قتلنا ابنه.. فسيموت حمزة وهو حي.. ستتساقط أوراق ربيعه.. سيموت بين أيدي الناس، بل قد يصير مثار شفقة، وسيشيخ تاريخه ويُنسى إلى الأبد.. فقط نريد أن نسرع حتى تكون جثة ولده في انتظاره..

صمت يعقوب يستوعب فكرة الباشا، ثم انتصب منشرحًا، ثم همس للباشا مازحًا:

- أفي عائلة جنابك عرق يهودي؟

(١٢)

سلم الشيخ سلامة من صلاته، واستدار واتكأ إلى جزع النخلة الذي يتخذه منبرًا ليختم الصلاة، اقترب منه الشاب فيصل يشكو إليه بصوت عال:

- هل سنظل صامتين على أفعال هذين اللصين يا شيخ سلامة؟

قال عبد المجيد منبهًا:

- أخفض صوتك يا فيصل!

انفعل فيصل وعلا صوته أكثر:

- يا ناس كفاكم جبن! إنهم يمتصون عرقنا عيانًا بيانًا.. فمن يعمل فينا في عزبة الباشا يحلبه يعقوب كما الشاة حتى يرضي سيده.. ومن له أرض في «عزبة نوح» لعابهم يسيل عليها وسيحتالون الحيل حتى ينالوها..

لم يجب الشيخ سلامة وظل صامتًا، فتدخل عبد المجيد ثانية يجيب نيابة عن سلامة:

- وماذا سيفعل لك الشيخ سلامة يا فيصل؟

امتعض الجالسون من جملة الرجل الجارحة، فسحبها سريعًا ليعتذر:

- لم أقصد..

فقاطعه سلامة مؤيدًا وجهة نظره:

- حقًّا ماذا سيفعل كفيف مثلي؟

دنا فيصل أكثر من سلامة:

- اجمع الناس يا شيخ.. العزبة لا تزال باسمكم ومعظم ما في يد الفلاحين هي أملاككم، أدرك ما تبقى قبل أن يضم الباشا «عزبة نوح» إلى عزبته.. ناد فيهم سيلتفون حولك كما التفوا حول العمدة حمزة..

أطرق سلامة قليلًا، ثم قال بهدوء:

- أنا لست حمزة يا فيصل؟

أطرق فيصل والفلاحون وساد الصمت قليلًا.. ثم قطعه فيصل ثانية:

- وما العمل يا شيخ؟

- الإجابة عندكم ليست عندي.. حمزة أعطاكم الأرض كي تدافعوا معه عنها.. الآن أنتم تنتظرونه كي يدافع عنكم وعنها..

ثم نهض خارجًا من المسجد، وهو يقول:

- خلصوا أنفسكم.. فقد لا يأتي المخلص..

(١٣)

زينب تسير بصعوبة متهادية بين ذراعي بحر وحلاوتهم، اللتين سلماها لفراشها المتهالك بهدوء حفاظًا على ارتفاع بطنها، فأصدر الفراش صريرًا مزعجًا واهتزت أعمدته النحاسية، فقالت حلاوتهم تغير هواء الحجرة وصدور من بالحجرة:

- هل هذا هو السرير الذي راهنتي بنات النوحية أن يأتين بمثله.. أعتقد أن حصيرة المنضرة أفضل منه بكثير..

أرادت زينب أن تجيبها لكن طلقها منعها، فضغطت على فكيها ثم شفتيها متأوهة:

- آه.. آه..

ثم مدت زينب يدها تتشبث بالقائم النحاسي خلفها، كأنها تقوم ببروفة للولادة:

- يا ناس أشعر بقنابل في ظهري..

اقتربت بحر من ابنتها ورفعت جزعها على ساعدها، وهي تنظر إليها مشفقة وقد تغير لونها سريعًا، وبدت ضعيفة مستسلمة:

- كنت كما القردة منذ قليل! ماذا أصابك؟

استدارت حلاوتهم ناحية النافذة لتغلقها، وتغلق معها باب الكآبة قبل أن تنفذ ريحها إلى المصدر الأساسي للضحك والفكاهة في دار النوحية، فقالت تستفز زينب:

- أيها المدعية لا يزال أمامك أكثر من شهر!

استجمعت زينب قواها وصاحت:

- أخرجي هذه المرأة من هنا..

ضبطت بحر الوسادة أسفل رأس زينب، ثم جذبت الغطاء عليها، وهي تقول لحلاوتهم:

- إنها دائما مخالفة.. حتى الولد مصطفى أنجبته ابن ثمانية..

لحظت حلاوتهم الهم الذي كسا وجه بحر، فدنت منها تنقذها وتنقذ نفسها وتنقذ الدار:

- يا عمة لا تشغلي بالك.. إن الله يخلص منها ما يجنيه لسانها..

ضغطت زينب على فكيها، ومدت يدها تبحث عن شيء تلقيها به فلم تجد، فاكتفت بالتهديد:

- رقدتي لن تطول يا عمة وستندمين..

تباسمت بحر وودت لو يستمران في معاركهما الضاحكة كعادتهما، حتى تطمئن أن ابنتها على حالها، فوضعت يدها على بطن زينب تجسها، وهي تسألها:

- هل هنا يؤلمك يا زينب؟

شعرت زينب بحال أمها المشفقة، فأرادت ألا تكون همًّا إضافيًّا، على الأقل في هذه المرحلة من النهار حتى يأتي من يحمل معها، فغالبت نفسها وأجابت مازحة ساخرة:

- كلا آلام الطلق تأتي في الركبة يا باش حكيمة!

فضحكت حلاوتهم مشجعة لزينب في مزاحها؛ حتى لو كان ذلك على حساب هيبة بحر، فبحر تتمنى ذلك، فآتت محاولة زينب ثمارها، فجذبت بحر المخدة وضربت بها زينب:

- تسخرين يا بنت حمزة!

فضحكن جميعًا أو تضاحكن، ثم انتهزتها حلاوتهم فرصة واستنهضت بحر لتشغلها بشيء آخر:

- وبعد يا عمة؟ هذه الغازية أضاعت وقتنا ونحن لم ننجز شيئًا في الدار، والغازيتان الأخريان لم يأتيا إلى الآن من الترعة وليس في الدار نقطة ماء..

نهضت بحر معها، وهي تنظر إلى زينب كأنها تودعها، فسحبتها حلاوتهم من ذراعها وخرجتا، ثم استدارت حلاوتهم تستفز زينب:

- إن احتجت شيئًا أسمعينا صراخك أيها الندابة..

فجذبت زينب المخدة التي ضربتها بها أمها وألقتها نحوها فخرجت حلاوتهم هاربة..

(١٤)

تغير الموقع الجغرافي للجازية وفاطمة، حيث انتقلتا إلى الناحية الأخرى من الطريق أسفل سور الجنينة تفاديًا لقطرات المطر، وغيرتا أيضًا موقعهما الحواري فقد قفزتا إلى صمت عميق وشرود، كأنهما فيلسوفتان من زمان الإغريق يجلسان أسفل معبد إسكندري، فقد هربت كل منهما من الأخرى، وعقدوا معاهدة صامتة أهم بنودها ألا تزعج إحداهما الأخرى وألا تنبش إحداهما في أفكار الأخرى وقلبها. أفاقت فاطمة، عندما لفتها فتيات يجهزن «الحوايا»، فيلففن قطعة من القماش على شكل دائرة سميكة قد تكون غطاء رأس قديم أو بقية ثوب وأحيانًا يصنعنها من القش، ثم يضعنها على رؤوسهن ليحملن البلاليص فوقها للرحيل من على شاطئ الترعة، فانتفضت فاطمة كأنما لدغها ثعبان:

- هيا يا جازية.. عمة بحر ستضربنا بالمركوب..

- لا يزال الوقت مبكرًا..
- الشمس توشك على الغروب..
- إذن اذهبي أنت..
- ماذا تقولين؟..
- إذن دعيني دقائق أدخل الجنينة.. أوحشني برتقالنا..

التفتت لها فاطمة:

- ما حكاية الجنينة والبرتقال معك منذ أيام؟
- إنها جنينتنا..
- أبوك رهنها..

كظمت الجازية غيظها، وتجاوزت عن نقض المعاهدة، وقالت بثقة:

- ستعود..
- عودي أنت إلى رشدك يا جازية..

بلعت الجازية لعابها، والتفتت إلى فاطمة، تستكشف هل تعرف شيئًا عن أسرارها، أو تظن فيها ظنًّا سيئًا، فقالت متنمرة:

- ماذا تقصدين؟

لم تفهم فاطمة سببًا لتنمرها، فقالت بهدوء:

- أقصد أن تدعك من هذه الأحلام..

ثم آثرت فاطمة السلامة، حتى لا تفتح صفحة جديدة من الشجار قد تصل بهما ثانية إلى صالح، فتكون الخسارة على الطرفين، فسمحت لابنة عمها بالذهاب مشترطة:

- دقيقة واحدة لا تزيد..

نهضت الجازية بسرعة ودخلت من فتحة السور التي خرجت منها أتان عمها سلامة منذ قليل، وفاطمة تتابع الفتيات اللاتي يتابعنهما، فهي تعرف أن الشيطان قد يوسوس لهما أن بنات النوحية يسرقان البرتقال فالجنينة مرهونة، فقامت مبتعدة عن سور الجنينة تريد أن تدفع عن نفسها الشبهة، فاتجهت ناحية شجرة التوت وعادت لجلستها الأولى، فأسندت ظهرها إلى الشجرة ثم تنهدت وشردت في حال قلبها الموجوع الذي لا تفتأ الجازية تضغط على مواضع الألم فيه دون رحمة، تعيد على نفسها الأسئلة التي كانت تطرحها الجازية في امتحاناتها ثم تعاود الإجابة الصامتة التي لم تستطع أن تجيب عنها منذ قليل، فتردد في آذانها صدى جملتها:

- أنت تحبين صالح..

فتسأل نفسها تؤنبها، قد يصير زوجًا لابنة عمها بعد شهور، ثم تنفض هذه الفكرة، كلا لن يصير زوجها فالأمر قديم والقلوب تتغير والجازية نفسها أعلنت ذلك، وصالح كما أحب الجازية أيضًا أحبها.. فيتردد صدى الجملة ثانية في أذنها وقلبها:

- أنت تحبين صالح..

أغمضت فاطمة عينيها خجلة، ثم لم تجد بدًّا من الاعتراف أمام نفسها، فقالت هامسة:

- نعم أنا أحب صالح..

انشرح صدرها للكلمة كأنها استدفأت بها من بردها، فاسترخى جسدها وانتعش قلبها، فاشتهت تكرارها، فنظرت عن يمينها وشمالها تتأكد من خلو المكان من المتنصتات، ثم قالت بصوت تسمعه الشجرة خلفها:

- نعم أحب صالح..

تنفست الصعداء كأن جرحها قد طاب، وكأن غاية أملها من حبها أن تنطق به لنفسها، فحمدت الله أن مكنها من ذلك، ثم وضعت رأسها بين ركبتيها لتكرر جملتها الممتعة مرات..

(١٥)

انحنى حسن بالسيارة إلى إحدى الطرق الفرعية، وقد سار ببطء شديد على غير عادته، وذلك تحسبًا للوضع الطبوغرافي الاستثنائي هذه الأيام وفي هذه الساعة، فالطين قد غطى الطريق وإطارات السيارة لا تستقر في خط مستقيم، ولا تنفذ أوامر المقود بسهولة، وأهالي العزبتين يتناثرون على السكك الفرعية ليسرعوا في نقل البرسيم إلى الحظائر كخزين في أيام الوحل هذه.

جلست سوزان في الكرسي الخلفي تتناوب النظر إلى المرآة المواجهة لحسن والنظر عبر نافذة السيارة حيث الشمس قد طلت خدودها باللون الأحمر، والأشجار المبتلة تتمايل بخفة مع مداعبات النسيم الشتوي الساحر وقطرات المطر.

لفتها الفلاحون المتعجلون في الحقول فتأملتهم قليلًا، ثم التفتت ناحية حسن الذي لا تعتبره سائقها، ثم أثارته بسؤال:

- أرى أن هذه الجنة خسارة في هؤلاء البلهاء؟

أثار الوصف حفيظة حسن كما توقعت، وهو بطبيعة الحال كان مستثارًا لخروجه في هذا التوقيت، لكنه لم يجب سريعًا كما كعادته، فهو دائما يأخذ فرصته كاملة في التفكير، فرمقها من خلال المرآة ليعاين مزاجها ويبني على نتائج تلك المعاينة أسلوب الرد والكلمات، ففوجئ بعينيها الزرقاوين جامدة تجاهه من خلال المرآة، فهرب بعينيه سريعًا حيث تكررت نظراتها له هذه الأيام، وهو يخشى هذه النظرات، فقالت تشجعه على الحوار:

- ماذا؟ ألا يعجبك كلامي؟

اعتدل حسن على كرسي القيادة، وأدرك أنه قد حان وقت الرد ولا مجال للهروب، واكتشف بحدسه أن عليه مخالفتها حتى تنال بغيتها:

- بالطبع كلامك يعجبني يا جناب الهانم.. لكن..

سوزان يعجبها دائمًا كلمة (لكن) من حسن، إنها تأتي بعد مقدمة مهذبة لائقة، فتأتي بجديد يفتح الحديث لجديد، فقالت تحفزه أكثر على الاعتراض إن شاء:

- ولكن ماذا؟ كن صريحًا حدثني دون تكلف.. ألسنا أصدقاء؟

ارتبك حسن لوصفه بذلك الوصف الدقيق، وسعل سعلة مفتعلة يخفي خجله وارتباكه، فالصداقة عندها لها أكثر من معنى أشهرها وما عاينه هو بنفسه، صداقتها لذاك الفتى الأمريكي الذي رحل منذ شهور، لكن هي بالطبع لم تقصد ذلك النوع، إنها رغم ما بها من دهاء وعجرفة إلا أنها أحيانًا تبدو طيبة كمصرية خالصة، فتنحنح وعبث بالباريه وتحس مكان زعنفة الشارب المفقودة، وقال يشكرها على المجاملة التي رفعته إلى درجة صديق ثم أجاب:

- العفو جنابك.. لكن أنت.. أقصد جنابك.. ترين هذه الطبيعة من نافذة السيارة وأنت.. أقصد جنابك.. جالسة على مقعدك الدافئ الوثير، فلم يقرص جنابك يومًا برد تلك الجنة ولم يفزعك رعدها وبرقها ولم يمسس قدمك يوما وحلها.. فأنت..

فضحكت مصححة قبل أن يستدرك:

- أقصد جنابك..

فابتسم حسن منتشيًا لتلطفها معه، ورحل بعينيه إلى المرآة دون خوف ونظر في عينيها دون ريبة، واستطرد:

- جنابك ترين هؤلاء الفلاحين بعيون زرقاء جميلة، حافظ الزمان والمكان على سحرها، فهي لم تسهر يومًا حتى الصباح لتسقي أرضًا ظمأى أو..

توقف حسن ثانية عندما رآها تبتسم من خلال المرآة، إنها معجبة بجملة الإطراء وكأنها لم تسمع غيرها، داخلته الريبة ثانية وأغلق نافذة عينه فرقًا، واستطرد سريعًا ليتدارك الوضع ويزاحم جملة الغزل بجمل جديدة، حتى لا تفهمه خطأ:

- لكن هؤلاء الـ.. بلهاء.. نحت الريح لحمهم وحطم البرد عظامهم وصنع الطين على جلدهم طبقات وطبقات.. لذا فهم في أحيان كثيرة لا يشعرون بالجنة التي ترينها أنت.. جنابك..

أعجبت سوزان بجواب حسن وبحسن، فعلقت عيناها بوجهه في المرآة، وظلت محدقة.. انتبه حسن لصمتها فأدرك أنها بالتأكيد تنظر إليه، فلم يلتفت حتى لا تصطدم عيناه بعينيها ثانية.. ساد الصمت حينًا وهي على حالها، فدفعه فضوله أن يختلس النظر ناحية المرآة، فضبطته عيناها متلبسًا، فبدا كأنما يبادلها الاستراق، فاعتدل في جلسته ومد يديه يتلهى بضبط اتجاه المرآة، وهي عقبت:

- كلامك دائمًا جميل يا أسطى حسن..

عدل حسن ياقته محرجًا وبلع لعابه، ثم أردفت سوزان كأنها ترد له جميل ثنائه:

- مثلك تمامًا.. جميل في كل شيء..

هذا ما كان يخشاه حسن، إنها تغازله بالفعل.. مسح قطرات العرق الوهمية من على جبينه مع قطرات المطر الحقيقية التي ترتطم بزجاج السيارة، وبدأ يشعر رغم برودة الجو أن هناك سخونة تتسرب إلى مقعده، وقال هاربًا من تلك الحال الغريبة الممتعة والمرعبة في الوقت ذاته:

- إلى أين تريدين أن تذهبي جنابك؟

فأجابت بدلال، كأنها كانت تستعد للسؤال:

- إلى قلب رجل وسيم.. وجهه كالبدر.. عيونه كالليل.. يحبني كما أحبه..

كأن قنبلة انفجرت في صدر حسن، فأخذ يسعل بشدة، وانفلت المقود من يده فجأة، فأخطأت السيارة اتجاهها..

(١٦)

زادت رخات المطر، ولم يجد أولاد النوحية بدًّا من التوقف عن العمل في انتظار قرار السيد بشر، خاصة وأن الأرض قد أوحلت من تحتهم، لكن بشر الصامد أراد أن يستكمل الحمل الذي أوشك على الانتهاء، فأشار لهم مشجعًا:

- باقي أربعة أغمار..

لكن أولاد النوحية نظروا إلى بعضهم يشجعون أنفسهم على الانسحاب رغمًا عن بشر، خاصة وأنهم رأوا الرجال يتجهون ناحية المسجد يتحامون في سقفه الضعيف، فأعلنوها ثورة على بشر، وليفعل ما يريد، فانطلقت الثائرة هند ناحية كوخ الشيخ سلامة، ثم انطلق الأولاد خلفها مخترقين حقل البرسيم، فصاح بشر مغتاظًا:

- أيها الجبناء!

ثم لم يجد بشر بدًّا من أن يلحق بهم فأسرع خلفهم لينضم لثورتهم عليه، لكنه بعد خطوات تذكر الجمل البارك وحيدًا، فلم يشأ أن يتركه فعاد ثانية إليه، وجلس أسفل عنقه العريض ليؤنسه ويحتمي به.

(١٧)

ساد صمت طويل، بعد جملتها القصيرة، التي أوشكا أعلى إثرها أن يخرجا عن الطريق المستقيم، وآثر حسن الصمت هروبًا من جرأتها وغزلها الذي قد لا يعدو إلا تلهيًا به وتسلية لها، فبدا أكثر هيبة منعًا لتكرار المحاولة، لكن سوزان لم يعجبها ذلك الصمت، فمالت على ظهر الكرسي أمامها بجوار أذنه، ووضعت رسغها أسفل ذقنها، لتعيد فكرة كانت قد نسيتها ونسيها حسن:

- هيا ألن تكمل تعليمي أيها المعلم؟

داعبت أنفاسها آذانه لكنه تجاهلها، وانتبه لما تعنيه، فقال مستنكرًا:

- الآن! في هذا الوحل!
- نعم..
- هذا خطر جنابك..
- كلا.. ليس خطرًا جنابك! أنا تعلمت الكثير.. وأستطيع أن أجلس إلى المقود مثلك، وأستطيع أن أصل إلى إيتاي وحدي.. جربني الآن وسأوصلك إلى السرايا في دقائق..
- بل سنصل إلى (أبو نكلا).. جنابك..
- وات إتز مينينج أبو نكلا؟
- إتس مينينج.. سنذهب فطيس يا جناب الهانم.. سنذهب في الكازوزة..

ضحكت سوزان ضحكة مائعة، فارتبك حسن وبحث عن لعاب يبلعه فلم يجد، فضرب بقبضة يده على المقود ضربة خفيفة تخفف توتره وتهدئ الثورة التي بداخله، فأردفت بدلال:

- لا تكن جافًا يا حسن..

اندهش حسن لمناداتها باسمه مباشرة دون (أسطى)، وأدرك أن الأمر يتطور بشكل لا يفهمه أو يفهمه ويتغابى عنه، ثم استطردت:

- أبي أمرك أن تعلمني.. علمني إذن..
- أنا تحت أمر جنابك وجناب الباشا.. لكن ليس الآن..

سوزان مهددة:

- هذا آخر كلام لديك حسن.. إذن لو لم تعلمني الآن سأغضب منك وسأخبر أبي أنك أغضبتني وصحت في وجهي..

حسن دهشًا، وسوزان مستمرة:

- ومدت يدك عليّ.. و..

أوقف حسن السيارة سريعًا، ليوقف سيل التهم المتتابعة:

- كفى كفى.. وعلام كل هذا..

ثم رفع يده مستسلما كأنها وضعت سلاحًا في ظهره، ثم فتح باب السيارة، وهبط سريعًا ودار إلى الناحية الأخرى وفتح لها الباب:

- تفضلي جنابك.. أنا في أمس الحاجة إلى الجنيهين اليتيمين..

ضحكت سوزان ضحكتها المعتادة، وانتشت لقرار حسن الذي هو قرارها بالطبع، واعتبرته مجاملة رقيقة منه، أو أرادت أن تعتبره كذلك، فأنزلت إحدى قدميها إلى الأرض سعيدة، لكنها فوجئت بالوحل فسحبتها صائحة:

- ما هذا يا حسن؟ تريدني أن أدوس في الوحل؟

اغتاظ حسن من تدللها، لكن حبس غيظه بداخله، واعتبرها فرصة جيدة كي تتراجع عن فكرتها التي قد تعطله عن أبيه وزينب إلى الليل، بل قد تعطله إلى الأبد، فقال لها يثبطها:

- ليس هناك حل آخر جنابك كي تصلي إلى المقود..

فكرت سوزان سريعًا، ووضعت سبابتها في فمها ثم زامت، ثم قالت منتشية كأنها أوقعت بفريسة:

- كلا هناك حل آخر..

بلع حسن لعابه وأوشك أن يفهم فسألها متوجسًا:

- ماذا؟

صدق تخمينه، فقالت:

- تحملني إلى المقود..

تسمر حسن:

- أحملك!

- نعم هيا..

مدت له ذراعيها ليضع يده تحت إبطها، متجاهلة اندهاشته؛ فالأمر يبدو لها عاديًّا بل هو أحد واجباته، لكنه تراجع فزعًا، كأنها تطلبه إلى شيء آخر، ثم تلفت حوله مرتبكًا، ومسح جبينه بكمه:

- لكن جنابك..

صاحت فيه وهي لا تزال رافعة ذراعيها:

- هيا يا حسن.. علام التردد.. ألا تستطيع أن تحملني!

- ما رأي جنابك أنت تقفزي من الكرسي الخلفي إلى الأمامي داخل الأتوموبيل..

- هيا يا حسن لا تضع وقتًا.. احملني..

تمتم حسن بالاستغفار في سره، وبدا أنه واقع في تلك الجريمة لا محالـة، فتلفت حوله في كل اتجاه، هل يراه من أحـد؟ الطريـق خـال، لكـن لا يؤمن أن يكون أحد خلف الأشجار.. لو علمت زينب سـتقتله، ثـم لم يجد بدًّا من إنفاذ الأمر.. فتقدم ومد يده أسفل إبطها ثـم تراجـع ثانيـة كأنه تكهرب.. فصرخت فيه:

- هيا.. أتعبت ذراعي

فاستجمع حسن أنفاسه وتقدم مرتبكًا وجـذبها بهـدوء، فالتصـقت بـه مدعية أنه تتشبث، يا للطامة! ترنح حسن بجوار السيارة ليس من الثقل بالطبع، لكن أسكره خمر عطرها ونعومة شـعرها ودفء...، إنـه دخـل جنة أخرى غير الـتي كانـت تصـفها لـه منـذ قليـل.. شـعر حسـن أن الخطوتين بين البابين سفر طويل.. استعاذ بالله كي يسقط الشيطان مـن فوق رأسـه، ويحـول أحاسيسـه في مسـارها الصـحيح.. فظـل يهمهـم مستغفرا ليواجه ذاك الاجتياح الرقيق..

أخيرًا وصل إلى باب السيارة الأمامي، فتحه بصعوبة، ثـم أدخلـها مـن الباب بسرعة وأجلسها أو شبه ألقاها.. وهـو يلـتقط أنفاسـه التائهـة.. ولكن سوزان ظلت متعلقـة بعنقـه تنظـر إليـه بشـهوة مراهقـة، ففـك ذراعيها بلطف، ثم تباسم كي يهرب من هذه الحالة، ثم سـعل سـعلته المفتعلة:

- ها نحن قد وصـلنا المقـود.. لا تفعلـي شـيئًا جنابـك حتى أجلس الناحية الأخرى..

عاد حسن يجر قدميه اللتين لم تعودا تحملاه، ثم انزلقت إحداهما فجأة فكاد يسقط أمام السيارة، لكنه تمالك نفسه، دار أمام السيارة ببطء حتى يعطي الفرصة لقلبه كي يعود إلى موقعه الطبيعي، فتح باب السيارة مترددًا، وقبل أن يدخل نظر إلى السماء متمتمًا باستغفار ودعاء، وهي تستعجله:

- هيا حسن..

دخل حسن وجلس بجوارها، وهو يمسح عرقه ويتحاشى النظر ناحيتها ثانية، إنه يشعر بفوضى عارمة بداخله، وهي تنظر إليه مستمتعة بخجله وبراءته التي تزيده وسامة وتزيدها شغفًا، فقال لها يريد أن يطلق سراح نفسه من حالته تلك:

- هيا جنابك تفضلي..

ثم متذكرًا شيئًا:

- لي طلب قبل أن نبدأ سوزان هانم..

فنظرت له، كأنها تعرض نفسها:

- وات دو يو وونت حسن؟
- هل تحفظين الفاتحة؟

(١٨)

لجأ صالح وعبود إلى إحدى العشش المتناثرة على الطريق، والخاصة ببهائم العمدة الجديد، وأنساهم حوار السياسة أنهم يجلسون على طاولة البهائم، فاستطرد عبود في حديث بدأه:

- إنها تحفظهم بروتوكولا بروتوكولا.. وجملة جملة.. بريطانيا يا أفندي تركت لهم الحبل على الغارب معسكرات على مستعمرات على مزارع يرمح فيها النصف مليون قرد..

قال صالح:

- والحل يا نحاس باشا؟

- بالسياسة..

- السياسة لا ترد الحقوق..

- هم أقوى سلاحًا..

- القوة ليست دائمًا في السلاح..

- فتوات العرب لن يغلبوا الصهاينة بكرباج حمزة.. ستدكهم دبابات بريطانيا.. عليهم أن يستسلموا للواقع..

فقال صالح ساخرًا:

- عليهم أن يخلعوا البنطال!

- أن ينحنوا قليلًا

- هذه خطوة لاحقة..

- المفاوضات وسيلة..

صاح صالح متناسيًا أنه حوار في الحظيرة:

- بل حيلة..

ثم هدأ:

- حيلة اخترعها المغتصبون لمزيد من النهب

- إنها تنازلات منطقية يفرضها القوي على الضعيف

- إنها دعارة سياسية وتفريط في الأعراض

- والحل يا باش حكيم؟

- المقاومة..

- فلسطين ثارت ثلاث سنوات ثم نامت..

- هم في انتظار العرب..

- شيء لله يا عرب!

انقطع المطر وانقطع معه الحوار، أطرقا برهة.. ثم انتبه صالح لانقطاع المطر، فنهض وأمسك بالقنديل..

- هيا بنا أيها القنصل قد تأخرنا..

(١٩)

جلس الشيخ سلامة في كوخه الصغير ومن حوله أولاد النوحية الذين هربوا من دولة بشر ومن المطر، يستمعون بشغف لحكايته التي يحكيها للمرة المائة، حتى مصطفى الصغير غرس مزمار البرسيم الذي صنعه له سلامة بين شفتيه، وسكت يستمع مع المستمعين:

- ذهب زبيبة النذل إلى المرحومة زوجتي وأراد أن يأخذ حجة الأرض هذه التي نجلس فيها، فرفضت وصاحت في وجهه.. فهددها أن الباشا سيسجنها ويسجنني، لكنها كانت شجاعة ورفضت، فشتمها فصفعته على وجهه وسبته وأرادت أن تخرجه من الدار، فضربها النذل بقبضته ثم انهال عليها بسوطه..

علا صدر الأولاد غيظًا من زبيبة في انتظار الانتقام، فسكت الشيخ قليلًا كعادته ليجس نبض إثارتهم، فحثوا الشيخ على المتابعة:

- هيه!

استطرد وهو يلوح بيديه كي يزيد القصة إثارة:

- ضجت «عزبة نوح» وذاع الخبر في كل دار.. وترقب الناس هل سيسكت حمزة؟ هل ضعف بعد أن ترك العمودية؟ إن الباشا أذله..

ثم سكت برهة، فصاح الأولاد:

- هيه!

- فماذا فعل حمزة؟

تململ الأولاد إنهم يريدون أن يسمعون منه هو ماذا فعل، فزاموا:

- هيه!

تابع الشيخ:

- أمسك حمزة سوطه السوداني الكبير، وركب فرسه السمراء القوية وانطلق مسرعًا فاخترق عزبة نوح ثم انطلق من وسط الجنينة ثم اتجه إلى المعدية ثم اخترق عزبة الباشا، حتى وصل السرايا والناس يجرون نحوه من كل صوب كي يتابعوه..

ثم سكت الشيخ سلامة، فزام الأولاد:

- هيه!

- رآه حراس السرايا من بعيد.. خافوا، ارتعشوا، ارتبكوا، تركوا البوابة هاربين، دخل حمزة بالفرس إلى بلاط السرايا.. ثم إلى الهول الفسيح فوجد زبيبة جالسًا مع الباشا..

سكت سلامة، وقبل أن يزوم الجمهور ،تابع:

- فزع الباشا وتراجع إلى الوراء خشية من حمزة.. ثم نزل حمزة وأمسك زبيبة من قفاه!

فضحك الأولاد، وصفقوا تحية لحمزة وأطلق مصطفى صوتًا من مزماره، ثم صمتوا منتبهين لبقية الحكاية، واستطرد سلامة:

- سحب حمزة زبيبة النذل من تلابيبه وقيده بحبل من يديه، ثم ربطه في سرج الفرس كما البهيمة، ثم انطلق به من عزبة الباشا إلى «عزبة نوح»، وزبيبة يجري خلفه وهو يصرخ ويستغيث.

ثم يقلد سلامة صوت زبيبة:

- أغيثوني يا خلق.. أغيثوني يا خلق..

دخل أولاد النوحية في نوبة ضحك من طريقة سلامة:

- والناس تخرج من كل دار يشاهدون ويجرون خلفهما.. حتى وصل حمزة إلى دار النوحية بعنزته التي اصطادها من سرايا الباشا.. فقفز حمزة من على الفرس، وجذب زبيبة النذل بقوة إلى داخل الحوش ثم ربطه في النخلة.

قاطعته هند مستوضحة:

- نخلتنا؟

- نعم.. وأخذ زبيبة يصرخ ويستغيث، لكن صوته تاه وسط سباب ولعنات الأهالي الذين تجمعوا سريعًا في دار النوحية.. فلم يأت المساء حتى كان حمزة قد شفى غليله وغلنا..

ثم شرد حزينًا:

- ولم يأت الصباح حتى..

تجهم سلامة وبلع ما تبقى من الحكاية، واعتبروا الأولاد أن الحكاية انتهت إلى هنا ككل مرة، فالتقطوا أنفاسهم بانتشاء، ثم صرفهم سلامة ليستكمل باقي القصة وحده:

- هيا.. بشر ينتظركم.. هيا أيها الشجعان..

(٢٠)

جلست بحر مستندة إلى حاصل الأرانب، وقد ضمت تحت إبطها ذكر بط سوداني «تزغطه» حبات الفول الخضراء، وقريبًا منها جثت حلاوتهم على ركبتيها عند أحد الموقدين، تنفخ النار وتقلب الخشب.. أطلقت بحر سراح ذكر البط، وألقت بعيونها إلى السماء ترقب السحب السوداء التي توشك أن تبكي ثانية، ثم همهمت تحدث نفسها:

- سامحك الله يا صالح دائمًا تتعب قلبي.. ليتك ما أرسلت مرسالًا..

انتقلت حلاوتهم بخفة إلى الموقد الآخر كي تشعله، لتتم عملية الطبخ، فتناولت «قولحة» ذرة جافة لم يدركها المطر من أسفل الجدار، ثم غطست مقدمتها في وعاء «السبرتاية» القريبة من الحاصل، ثم أشعلت القولحة من الموقد المشتعل ثم ألقت بها وسط الخشب والحطب في الموقد الآخر..

تململت بحر في مكانها، ثم عدلت من جلستها فعقدت ساعديها فوق ركبتيها، ثم أرخت ذقنها على ساعديها، تبحث عن بداية لخيط الكلام، فهي تتوجس من لحظات الصمت التي اعتبرتها، مع التكرار، فواصل زمنية بين المفاجآت التي تأتي مرة سعيدة ومرة غير ذلك:

- أين غطس المحروس زوجك؟

سعلت حلاوتهم بعد أن استنشقت خطأ الدخان أثناء نفخها، وربما لتعطي نفسها مساحة زمنية أكبر للتفكير في الإجابة.. فكان أمامها

خياران كلاهما مر، فلو أخبرتها بمهمته ستدخل في نقاش ساخن لا ناقة لها فيه ولا جمل، وعليه فقد وقع اختيارها على الثاني فوجدت أن إنكار المعرفة وإظهار الحياد أسهل:

- لا أدري يا عمة حاله مقلوب هذه الأيام..

هشت بحر ديكًا صغيرًا ينقر قدمها ويبحث عن حبوب بين أصابعها، ثم لوت فمها ساخرة من جملة حلاوتهم:

- ومنذ متى اعتدل حال خليفة! إنه موحول منذ زمن..

سكتت حلاوتهم وتمنت أن تسكت بحر، لكن الثانية قفزت بالكلام إلى محطة أخرى:

- ماذا فعل في أمر الجمل؟

بلعت حلاوتهم الدخان للمرة الثانية، فسعلت بشدة، ثم تشاغلت بالنفخ تحت الموقد الثاني، ثم لم تجد أفضل من الجملة التي أسكتها بها خليفة في الظهيرة:

- دبري لنا أنت يا عمة.. الجمل صار عجوزًا وعاطلًا طيلة الشتاء.. والقرش شحيح..

لكن الإجابة التي أسكتتها لم تكن لتسكت بحر، فتلقفت الجملة التي تعلم جيدًا أنها صناعة رديئة من صنع خليفة، وقالت كأنها تفتتح خطبة:

- ولِمَ لم يتدبر المحروس حاله منذ البداية؟ لِمَ أصر على تقسيم الميراث فور غياب حمزة؟ لم جرى وراء البكوية وبعثر

أرضه يمينًا ويسارًا؟ لم رشا الباشا والمأمور ولا يزال طمعًا في رضا لن يجلب غير الوحل والمذلة.. واليوم جاء الدور على الجمل.. أخشى أن أستيقظ يوما أجده باع فرس حمزة!

ثم شردت بحر على ذكر حمزة:

- لا أدري ماذا سيفعل بنا عندما يعود ويرى حالنا، لا أستبعد أن يعلقنا جميعًا مكان زبيبة..

لم تجد بحر خصمًا يناوشها حتى تخرج كل ما في جعبتها، فتنهدت تنهيدة طويلة مكتفية بما قالت وسكتت.. طالت فترة الصمت فتململت بحر في مكانها.. أرهفت السمع تترقب كأنها في انتظار حدث، وبالفعل انطلقت استغاثة زينب من جديد..

(٢١)

تناثر الأنفار يجمعون البرتقال ويلقونه في مشناتهم بنشاط، قبل أن يعاود المطر شوطه الثاني، ومن خلفهم وقف الخولي العجوز يلوح بعصاه ويصيح كأنه يريد أن يُسمع شخصًا آخر ليُعلمه أنه صاحب هيبة وسلطان في المكان:

- اعملوا لكم همة أيها الكسالى.. خسارة فيكم القرش..

قريبًا منه بخطوات سار خليفة النوحي ببطء إلى غير هدف على الممشى الذي يقسم الجنينة إلى قسمين، والذي كان يمشي عليه أهل العزبة قديمًا

ليختصروا طريقهم إلى إيتاي سيرًا على الأقدام، لكن بعد ما رهنها للباشا، صار هذا المباح ممنوعًا على غالبية الناس.

يغرس خليفة عصاه وينزعها كأنه يكز الأرض النائمة ليوقظها ويذكرها أنه أحد النوحية الذي تربوا في حضنها، ويعاتبها أنها صارت بين عشية وضحاها في أحضان غيرهم، ثم ألقى ببصره بعيدًا نحو الدوار الذي يبدو بعيدًا في آخر الممشى، ليعاتبه هو الآخر على الجريمة نفسها.

أنهى الخولي نوبة صياحه للأنفار ثم استدار وسحب فرسه الأسود وسار على الممشى وراء خليفة يستكمل الحوار.. لكن خليفة الشارد نحو الدوار لم يشعر به.. هز خليفة عنقه متحسرًا ثم لوح بالعصا كأنه يلقي التحية لبرج الدوار، انتبه الخولي المكير لحاله، فوقف قليلًا خلفه يراقبه لا يريد أن يقتحم عليه خلوة الذكريات، ثم تقدم بهدوء وربت على كتفه يواسيه في شماته أو يشمت في مواساة:

- كم ذهب عن قوم ثم عاد..

أفاق خليفة وانسحب من شروده بكبرياء مصطنع:

- كان شرًّا نجانا الله منه.. الدوار مجبنة عن الحق ومذلة للمأمور والبشوات..

فرك الخولي يده كأنه انتهى من أكلة خروف لتوه، ثم ابتسم ابتسامة خبيثة، فهو يدرك داخلة خليفة جيدًا، ويعرف أن هذه الكلمات ليست ملكيته الخاصة، بل استعارها من قاموس شقيقه الغائب، كعادة أفراد النوحية في كثير من الأوقات، إما عن قناعة بموقف حمزة النوحي الذي

قطع نسل العمودية من بيت النوحية باختياره، أو محاولة يائسة لتبييض حاضر سيء يزداد سوادًا يومًا بعد يوم، فقال له يشوكه بالكلام ويؤكد له أنه يعرف الخبايا:

- البكوية ستعيد ما فات..

تعطلت ملامح خليفة ولم يبد أي رد فعل لسماع الجملة، وكأنه لم يسمع شيئًا، فهو يريد أن يعطي الخولي حجمه المناسب، فهو في النهاية خولي الباشا.. مد الخولي يده إلى مشنة أحد الأنفار المارين وخطف برتقالة ومسحها، ثم ألقمها فرسه ليلفت إليه نظر خليفة كنوع من التباهي، ثم قال باسمًا:

- إنه أدمن برتقال النوحية..

ثم عاد إلى حديثهما الأول، وهو يفرك إحدى راحتيه بالأخرى:

- ماذا قلت؟
- سأبيع..
- على بركة المولى.. ويعقوب جاهز بالخمسين جنيهًا..

فوجئ خليفة باسم يعقوب، فاستدار مستنكرًا:

- يعقوب هو المشتري! لمَ لم تخبرني من البداية؟
- وهل يجعل ذلك الأمر مختلفًا، أعتقد أن الثمن هو ما يعنيك؟

سكت خليفة برهة ثم سأله:

- يعقوب يشتري لصالح الباشا..

ففرك يده وابتسم ابتسامته:

- والباشا حبيبك..

- وماذا سيفعلان بالجمل؟

فأجابه الخولي متعمدًا صدمته:

- سيذبحانه في حفل لسوزان هانم..

أُخذ خليفة من مباشرة الإجابة، وحدج الخولي غاضبًا، لكنه أدار الأمر في ذهنه سريعًا، فوجد أن اختفاء الجمل بعد بيعه طريقة مثلى لحجب الأسئلة والإجابات، وحتى لا يراه أطفال النوحية في صباح أو مساء فيثير لديهم الشجون، أو يراه كبار النوحية ضمن قائمة مبيعاتهم الحية بين أيديهم فيلعنون البائع، أو تحاول بحر المتشددة تجاهه أن تعاود شراءه من مالها، فتكسر أنفه أمام ساكني الدار، أو الكارثة الكبرى أن يراه حمزة بعدما يعود، فرد بهدوء على غير ما توقع الخولي:

- متى ستأتي لتأخذه؟

استدرك خليفة قبل أن يجيبه الخولي، وقد مر بمخيلته مشهد تسليم الجمل أمام النوحية خاصة بحر، فاستنكره وخاف تبعاته، فقطع عليه الإجابة:

- كلا.. لا داعي أنا سآتي لك به..

أعجب الخولي بالاقتراح:

- هذا أفضل..

- إذن اليوم بعد العشاء سأنتظرك به على رأس الطريق..

- فليكن هنا بعيدًا عن عيون النوحية..

- هنا؟!

فهز خليفة رأسه بالإيجاب.. فلم يرد الخولي أن يزيده بالأسئلة..

- على بركة الله..

ثم انتظر خليفة أن يخرج الخولي النقود ثمن الجمل فهو في أمس الحاجة إليه، لكن الخولي لم يفعل، واستكبر خليفة أن يطلبها مباشرة، لكن الخولي انتبه ففرك راحته بالأخرى:

- معذرة ليس معي المبلغ الآن..

أخفى خليفة ضيقه، وكاد أن يعرض عليه الذهاب معه للعودة بالمال، لكن خشي أن يفتضح أمر إفلاسه، فبلع لعابه محرجًا:

- إذن في المساء..

ثم استدار خليفة ليترك المكان:

- بالإذن الآن.. سلام عليكم

تحرك منصرفًا، فقفز حبشي ابن الخولي أمامه، بسحنة تشبه سحنة أبيه وبابتسامة أكثر سوءًا:

- أهلا عم خليفة..

رحب خليفة بقليل من الاهتمام:

- أهلًا حبشي..

ثم هم خليفة باستكمال إجراءات المغادرة، لكن حبشي استوقفه مترددًا مرتبكًا:

- عم خليفة!

توقف خليفة مستفسرًا، والتفت حبشي إلى أبيه يحثه على القيام بدوره في الكلام:

- كنت أريدك في كلمتين..

ثم لأبيه:

- ألم تخبره يا أبي؟

- ليس وقته الآن يا حبشي..

استدار خليفة وهو يكتم غيظه:

- ماذا تريد أنت وابنك يا سنوسي؟

فرك الخولي سنوسي راحته في الأخرى مترددًا مدعي الخجل:

- حبشي كان وده.. أعني..

كاد صبر خليفة أن ينفد:

- انطق يا سنوسي!

- حبشي كان يريد أن يطلب يد الجازية..

توقع خليفة الطلب منذ البداية، لكنه لم يكن متوقعًا أن يُعرض عليه بهذه السهولة في جنينة البرتقال، دون مراعاة لهيبة النوحية وتاريخهم، لكن مع العهد الجديد من زمن النوحية، لا بد أن ينخفض سقف التوقعات، فامتص خليفة صدمة الطلب وسكت برهة يفكر في الرد،

فظن الخولي أنها إرهاصات موافقة، فانتهز فرصة الصمت وأراد أن يحيطه بالإغراءات:

- سنجهزها بكافة الأغراض فقط نريدها بثيابها..

وفّرت جملة سنوسي الساذجة عناء التفكير في الرد، فتجهم خليفة وانفجر فيه:

- النوحية لم يفلسوا بعد يا خولي الباشا حتى يعجزوا عن تجهيز بناتهم..

نظر حبشي لأبيه لائمًا، فوجد الخولي نفسه كالدبة التي قتلت صاحبها، فحاول أن يصحح الموقف سريعًا:

- النوحية أسيادنا يا أبا بشر.. قصدت فقط..

قطع خليفة عليه الكلام، وقد صارت الفرصة ملائمة للهروب:

- الجازية مخطوبة لابن عمها يا سنوسي..
- لكن هذا منذ زمن.. وعلمت أنك لا ترغب في هذه الزيجة..

اندهش خليفة أن وصل خبره ذلك لخولي الباشا، فبالتأكيد يعرفه أهل النوحية، لكنه أصر على المراوغة لحاجة في نفسه:

- أرغب أو لا أرغب.. قرأت مع أخي فاتحة..

نظر سنوسي لابنه يائسًا بعد أن خيب أمله، ثم عاد لخليفة:

- كما تحب يا نوحي.. لكن لو لم يكن لابن حمزة نصيب فيها..

قطع عليه خليفة خيط الحديث ثانية:

- الغيب يعلمه الله يا سنوسي.. سلام..

انصرف خليفة من أمامهما، والتفت حبشي إلى أبيه مؤنبًا، ثم صاح سنوسي في ابنه يهرب من نظرته اللائمة:

- ماذا تريدني أن أفعل أيها الأحمق؟

حبشي يتحرق غيظًا، ويشوح بيده:

- سأفعل أنا.. سأتزوجها بأية وسيلة.. حتى لو بالدم..

ثم ألقى بجملته كأنه يعاير أباه بما قاله خليفة:

- شكرا يا خولي الباشا!

ثم هم منصرفًا في غضب..

(٢٢)

من تبقى من الفلاحين في الحقول بدأ ينسحب قبل معركة المطر التي أوشكت على الاندلاع، فحلوا بهائمهم خلفهم منصرفين، أو انتهوا من أحمال البرسيم على ظهور الحمير وأسرعوا هاربين.. وأنهى أولاد النوحية مأموريتهم هم الآخرون، وصار الجمل مستعدًّا للرحيل.. دار

بشر وعلى كتفه مصطفى حول الجمل دورة سريعة لدواع أمنية خاصة بحمل البرسيم، ثم رفع يده مبشرًا:

- هيا يا نوحية..

أمسك بشر بخطام الجمل، وأشار إلى هند والطفلين الآخرين أن يركبوا سريعًا على حمل البرسيم حسب الاتفاق، كجائزة لهم على جهدهم وعضة البرد التي تعرضوا لها، وتابعهم مصطفى الصغير كاظمًا غيظه، ولولا أنه على ظهر بشر ما ترك ظهر الجمل أبدًا..

انطلقت هند وقفزت قفز قوية واستقرت وسط الحمل متمكنة من بروز سنام الجمل، ثم ركب من خلفها الطفل القصير، لكن لم يلبثا أن دبت بينهم مناوشات ومعارك على مكان المقدمة على الحمل، والتي شغلته هند ولا يستطيع أحد زحزحتها.. تشاكسا على المكان حاول الطفل أن يدفع هند أسفل الحمل وهي الأخرى حاولت ذلك، فصاح بشر، ليوقف إطلاق الشتائم واللكمات:

- اهدءا وتشبثا ببعضكما..

هدءا عندما أحسا أن ساعة النهوض اقتربت، تشبث كل منهما بطرف الغبيط أو بوبر السنام، مد بشر يده إلى عصا صغيرة مغروزة كمشبك في قيد الجمل لا يمكنه أن ينهض بدون نزعها، فجذبها فنهض الجمل على الفور، وقد مل من مناخه، فرفع قدميه الخلفيتين متكئًا على ركبتيه الأماميتين فصاح الأطفال رعبًا واختل توازنهم على ظهر الجمل بشكل مفاجئ فسقطا وهما يصرخان.

تابع مصطفى المشهد مثارًا ثم انفجر ضاحكًا ومصفقًا سعيدًا بهذه النهاية المبكرة التي شفت غليله.

(٢٣)

وقفت فاطمة متململة على الشاطئ وقد ملأت البلاصين وأسندتهما إلى جزع الشجرة، تلفتت يمينًا ويسارًا عسى أن تخرج الجازية من أي اتجاه، ضربت على فخذها قلقة، والفتيات يغادرن المكان واحدة تلو الأخرى، ثم عاودت النظر إلى فتحة سور الجنينة التي تدخل وتخرج منها الجازية وأتان عمها وكل من يستبيح الجنينة، تحركت فاطمة جيئة وذهابًا على الشاطئ، ولم يعد سوى فتاتين أو ثلاثة.. همهمت فاطمة:

- منك لله يا بنت خليفة.. بحر ستشعل فينا نارًا..

عاودت فاطمة النظر إلى سور الجنينة وقد خطر لها أن تذهب بنفسها لتأتي بها، ثم تراجعت عن الفكرة، فهي لا تحب أن تدخل الجنينة كأنها سارقة، وقد كانت يومًا مسرحًا وملعبًا لها ولأترابها من النوحية.. انتظرت قليلًا ثم لم تجد بدًّا من تنفيذ فكرتها، فقد خطر لها أن يكون قد أصاب ابنة عمها مكروه، فالجنينة في هذا التوقيت غير مأمونة.. انتفضت فاطمة مع خاطرها وتحركت نحو فتحة السور ودلفت مترددة لكنها لم تكد تخطو خطوتين في الجنينة حتى خرجت سريعًا، ووقفت عند الفتحة مستنكرة هذا الفعل، لكنها ما لبثت أن تشجعت وعادت فمدت رأسها ونادت من الخارج لتنفي عن نفسها شبهة السرقة أمام

الفتيات الواقفات على الشاطئ، ولعل الجازية تسمعها فلا تضطر للدخول:

- جازية.. يا جازية..

لكنها لم تجبها، فضربت بيدها على السور غاضبة وهي تتمتم بسب الجازية، ثم عزمت على الدخول فدخلت.. سارت على ممشى الشيخ سلامة، تقدمت خطوات وسط الشجر متوجسة مترددة، وهي تتلفت حولها مرتبكة، لكنها ما لبثت أن داعبتها روائح البرتقال المحببة إلى نفسها منذ زمن طويل، فمسها ما مس أعمامها، فغزت الرائحة مستودع ذكرياتها، أحست بخدر جميل فعاد إليها هدوءها، دارت حول نفسها سعيدة كأنها تريد أن ترقص.. أغمضت عينيها مسترخية مستسلمة للماضي القريب الذي يحوم حولها فيقول الأشعار ويدغدغ المشاعر ويلامس شعرها.. فتح الماضي أبوابه لها.. رأت صالح الطفل الأسمر النحيل ذا الشعر الناعم هناك يمسك ببرتقالة كأنها كرة وسائر أطفال النوحية قد اصطفوا أمامه ينتظرونه أن يلقيها ليطيروا نحوها، فيجري عليها الصبيان ومعهم الجازية وتقف هي وحدها فيخرج لها برتقالة أخرى من جيبه الصغير، ويلقيها نحوها؛ فيفاجأ الجميع بعد معركة محتدمة على البرتقالة أن فاطمة هي التي فازت، فتغتاظ الجازية وتهجم عليها لتأخذها..

ترتد فاطمة لواقعها فتجد أمامها برتقالة متدلية فتمد يدها إليها سعيدة، ثم تتراجع متذكرة أن الجنينة لم تعد ملكهم، فتهرب إلى للماضي ثانية..

صالح يعصب على عينيها منديلًا، ثم يجري مع الجازية وعبود وحسن، فتمد فاطمة يديها كالعمياء أمامها تبحث عـنهم، فتوشـك أن تصـطدم بشجرة الليمون المزروعة وسط البرتقال، فيدركها صالح منبهًا:

- حاسبي يا فطوم..

أفاقت فاطمة فجأة وقد اصطدمت بشجرة الليمون في الواقع، تحسست وجهها وتأوهت وتلفتت حولها كأنها تبحث عن صالح، ثم تذكرت أن مهمتها الآن هي البحث الجازية فانسحبت من ماضيها مضطرة، ونادت بصوت خفيض:

- جازية.. يا جازية..

لفتتها الشجرة المقطوعة هناك، اقتربت منها سعيدة، سمعت دق المزاهر قريبًا من أذنها، فهنا كانت تجلس العـروس في لعبتهـا المفضـلة، كـانوا يزفون زينب لحسن دائمًا، وجازية وفاطمة يتناوبان الزفـاف لصـالح.. وفي إحدى المرات كان المأذون هو حمزة النوحي شخصيًّا، فزعوا عندما أطل عليهم بهيبته المرعبة، لكنه ابتسـم يطمئـنهم وهـو يشـير إلى نفسـه مازحًا على غير عادته:

- أنا المأذون!

ابتسمت فاطمة وأرادت أن تجلس على جزع الشجرة لكنهـا انتفضـت كمـن لـدغها ثعبـان فسـقطت الـذكريات علـى أرض الماضـي مـع انتفاضتها، فقد رأت ابنة عمتها بعيدًا في طرف الجنينة..

***

وقف ابن العمدة أمام الجازية، وقد تخطى المسافة القانونية بين الشاب والفتاة في «عزبة نوح»، إنه يغازلها وهي تبدي تمنعها تارة وتمتعها تارة، ابتسم ابن العمدة ابتسامة بلهاء فاتسع فمه بشكل كبير، فبدا «حوله» بشكل أوضح، فأغراه موقف الجازية أن يلمس ذراعها، لكنها دفعت يده بقوة، ثم في لهجة نسائية مائعة:

- بالحلال يا ابن العمدة..
- ومتى الحلال؟
- عندما يأذن الله..
- ومتى يأذن الله..
- عندما يخرج النحس من دار النوحية، نحن لا نكاد نخرج من حفرة فنسقط في أخرى..
- لك عندي خبر سينهي نحسكم ونحسي وأستحق عليه قبلة..

فرمقته الجازية غاضبة، فقال مصححًا:

- قبلة من عم خليفة..
- قل.. ما الخبر؟
- حمزة النوحي..

انتفضت الجازية على ذكر عمها، وارتبكت واحمر وجهها، وضبطت غطاء رأسها خجلًا كأن سيرته تحضر صورته، فقالت:

- ما به؟
- خرج..

أخذت الجازية من الخبر، ونضبت البشاشة من على وجهها، فبلعت لعابها وتاهت عينها، وخرس لسانها لا تدري ماذا تقول، كأنما زف إليها خبر وفاته، ثم استطرد ابن العمدة:

- وقد يصل غدًا إلى عزبة نوح..

أغمضت الجازية جفنيها تفكر في التعامل مع الخبر، اندهش ابن العمدة من رد فعلها فجمع زوايا ثغرة المتفرقة، وقال مستنكرًا:

- ما بك.. حالك يشبه حال العمدة والخولي عندما علما بالخبر!

قالت له بجدية:

- عمي قد يعطل زيجتنا ويعطل كل شيء..
- ولَمَ؟
- كما أقول لك..

تفهم ابن العمدة حالها، وأراحه حرصها عليه وحبها له – بحسب فهمه – فسألها:

- إذن ما العمل؟
- لا بد أن تطلبني اليوم من أبي.. وتقرأ معه الفاتحة..

فصفق سعيدًا:

- هذا ما أتمناه..
- هل يعرف أحد بأمر عمي حمزة؟
- بالطبع لا.. أبي والباشا تكتموا على الخبر.. ولو علم أبي أني أخبرتك لقطع عنقي..

ثم قال ببلاهة:

- لم أكن أتصور أن ظهـور حمـزة النـوحي خطـر علـى الجميع لهذه الدرجة..

اقتربت فاطمة من موقع الحدث خطوات، فرأت الشاب فضربت علـى صدرها مصعوقة.. ولم يشعرا بها، ابتسم ابن العمدة ابتسامته العريضـة التي تشبه مقدمات البكاء:

- سأتقدم لأبيك اليوم ونكتب الأسبوع القادم..
- موافقة.. والآن سأغادر..
- انتظري دقائق..

قذفت فاطمة بنفسها ناحيتهما وصاحت في الجازية:

- ماذا تفعلين هنا أيها الموكوسة مع هذا الأحول..

ارتبك ابن العمدة وتلجلج وتلعثم ثم هم منصرفًا:

- سأنصرف الآن..

فاطمة بجدة:

- في ستين غارة..

انصرف ابن العمدة مسرعًا، ثم التفتت فاطمة للجازية محدجة، لكن ابنة عمها المتلبسة بدت هادئة تمامًا كأن شيئا لم يحدث، وأبدت استعدادًا تامًّا للاستماع لتوبيخ فاطمة ومواعظها الرتيبة المكررة.. اقتربت منها فاطمة، وقالت بغيظ:

- كان حمزة النوحي يقول إن كل عائلة بها عرق واط..

ثم دارت حولها تثير غضبها كي تثيرها معركة وتفجر غضبها فيها:

- مبارك العريس.. صراحة يليق بك.. أم أقول مبارك الدوار؟!

تحركت الجازية في طريقها إلى الخروج، فزاد استفزاز فاطمة لعدم مبالاتها، فجذبتها من ذراعها بعنف:

- ما هذا البرود!

التفتت لها الجازية وأفلتت ذراعها، وقالت بهدوء:

- ظننت أنك ستفرحين..

ثم أردفت في ابتسامة خبيثة:

- قد خلا لك الجو مع حبيب القلب.. اشبعي به..

كانت فاطمة تتحرق غيظًا من بجاحة ابنة عمها، وواتتها الفرصة كي تقضي غلها، فلم تجد أفضل من تلك المناسبة، فصفعتها على وجهها..

(٢٤)

اتجه الباشا إلى الخزانة في حجرة مكتبه، ثم وقف أمامها يتحسس جيبه يبحث عن المفتاح، ويعقوب خارج باب المكتب قد وقف يرمق الخزانة من بعيد، أخرج الباشا المفتاح وهو يوصل حديثًا انقطع:

- صاروا طائرًا بلا جناح.. بلا عمودية بلا أرض

ثم يضرب على الخزانة:

- بلا مال..

ثم انحنى فوضع المفتاح في الخزانة ويعقوب يزداد ترقبًا، والباشا يستطرد وهو يفتح الخزانة:

- أما المدعو حمزة فكان ظاهرة مرضية..

ثم انتصب ليتم جملته ويؤكد على النتيجة التي وصل إليها، فالتفت إلى يعقوب، الذي علقت عيناه بالخزانة:

- لن نسمح أن تتكرر

أخرج الباشا رزمة مال من الخزانة ثم أغلقها، ثم استدار متجهًا ناحية يعقوب خارجًا من حجرة المكتب، ويعقوب يزداد شغفًا ولعابه يتدفق من بين شفتيه، ثم قال يعقوب:

- أخشى أن يقويه الكرب ويلحقني بزبيبة..

فابتسم الباشا ابتسامة ساخرة:

- صقر بلا مخالب، نسميه ذكر بط..

ثم قهقه الباشا مستحسنًا وصفه فضحك معه يعقوب مجاملًا وعينه مثبتة على النقود، والباشا يحلل مقولته:

- أصابه الشيب ونسيت الناس زعامته.. وأخوته أحدهما شبه ميت والآخر سيضيع عمره بحثًا عن البكوية ونسب العمودية والثالث كفيف لا حول له ولا قوة، ووريثه الوحيد سيصير موروثًا بعد ساعات، وزوج ابنته خادمنا المطيع.. ماذا نخشى بعد هذا؟

ثم مد الباشا يده إلى يعقوب بالمال.. فاندفع يعقوب نحوها وقبض عليها وهو يقبل يد الباشا.

(٢٥)

على إحدى الطرق الفرعية بالقرية، انطلقت السيارة على الطريق تتلوى كثعبان أطرش، حسن يرجوها أن تبطئ، وسوزان تضحك مستمتعة بالحالة:

- لم أكن أعلم أنك تخاف؟

صاح حسن بجوارها ويده معلقة قريبة من المقود تحسبًا لانزلاق متوقع:

- لعلم جنابك أنا أجبن واحد في النوحية و«عزبة نوح» كلها.. أرجوك سوزان هانم أريد أن أربي مصطفى..

سوزان تهدئ السرعة قليلًا:

- ألديك طفل يا حسن؟

حسن مستعطفًا:

- طفل واحد والثاني لا يزال مترددًا.. وبطريقتك هذه يستحيل أن أنجب الثالث..

ضحكت سوزان ثم ضغطت على بنزين السيارة فاندفعت بقوة، فانتفض حسن:

- يا هانم في عرضك..

ثم هدأت السرعة ثانية:

- لاف يور وايف أسطى حسن؟

- وات..

- أتحب امرأتك؟

- أوف كورس..

سوزان يغيظها رده وتتغير ملامحها، وهو يستطرد:

- أي أي آيام فري لف زينب..

فتضحكها طريقته:

- أخيرًا جمعت جملة..

- من عاشر القوم يا جناب الهانم..

قطع حديثهما مفاجأة غير سارة، فقد فاجأهما حبشي خارجًا من إحدى فتحات سور الجنينة، قد غلبه الغضب فلم ينتبه إلى الطريق،

ففوجئ بنفسه أمام سيارة سوزان.. التفت حبشي فرأى من موضعه أنه مدهوس لا محالة فتسمر مكانه عاجزًا عن الحركة، لا يدري يرجع أم يتقدم أم يقفز.. ارتبكت سوزان وأوشكت أن تصدمه، لكن حسن مد قدمه سريعًا إلى الفرامل ويده إلى المقود، فساعدها على إيقاف السيارة قبل أن تدركه بمسافة قليلة.. نسيت سوزان أمر السيارة والكائن الذي أوشكت أن تصدمه، وسرحت مع أنفاس حسن التي غمرتها للمرة الثانية، فالتفتت إليه تتفرس ملامحه بشهوة، أفاق حسن على تلك الحرارة التي تولدت من ذلك الاحتكاك غير المتعمد، فابتعد عنها معتذرًا ومستعيذًا بالله في سره من الشيطان.. ثم أفاقت سوزان من حالتها، وصاحت في حبشي..

- أيها الغبي.. كنت على وشك أن أحطمك..

همهم حسن عندما أدرك أن حبشي ابن الخولي كان هو الضحية:

- ليتكِ فعلت..

تقدم حبشي نحو سوزان وقد نسي أمر غضبه، فقال متباسمًا:

- أسعد ميتة تحت إطار سيارة جنابك يا هانم!

حسن مندهشًا ساخرًا:

- شوفوا ابن الخولي!

- أووه.. فلاحون يغازلون أسطى حسن..

فقال حبشي معتبرًا أن جملة سوزان إطراء تستحق غزلًا إضافيًّا فقال ببلاهة:

- جنابك تنطقي الحمار يا هانم..

فضحكت سوزان من تعليقه، ثم استعدت لاستكمال المسيرة:

- إذن انتبه للطريق وأنت تمر حمار أفندي..

فضحك حسن ملء فيه، وحبشي شيعهما بابتسامة صفراء:

- محظوظ يا ابن عبد المولى!

(٢٦)

وقف عبود وصالح في عرض الطريق، عبود يتحرك أمام صالح كأنه على مسرح.. وصالح يقف مبتسمًا ويهز رأسه محييًا:

عبود يتنحنح ثم يبدأ خطبته قارئًا من المجلة التي في يده:

«إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف.. إلى إقامة وطن قومي في فلسطين للشعب اليهودي..»

صالح يضع القنديل بين فخذيه، ويصفق بحرارة:

- الله أكبر.. ينصرك على من يعاديك يا رجل يا سكرة..

عبود ينحني:

- شكرًا شكرًا..

ثم مستطردا:

- «وسوف تبذل أقصى جهودها لتسهيل هذه الغاية..»

صالح يقبل يدي عبود، عبود ينزع يده ويرفعها محذرًا:

- «على أن يفهم جليًّا أنه لا يجوز عمل شيء قد يضر بالحقوق المدنية والدينية التي للطوائف الأخرى غير اليهودية في فلسطين..»

- يا حنون يا صاحب القلب الطيب!

- «ولا الحقوق ولا المركز السياسي الذي يتمتع به اليهود في أي بلد غيرها..»

صالح يصفق محييًّا عبود، وعبود ينحني كأنه يحيي الجمهور:

- إمضاء بلفور ابن أم بلفور..

- عطاياك كثرت علينا يا خال..

فضرب عبود على كتف صالح:

- عيب يا ولد يا وايزمان لا تقل هذا الكلام.. أنا أخدمكم بنن عينيه.. أنتم أولاد الغالية..

صالح يضرب على جبهته، وأمسك بحامل القنديل واستدار مجدًّا:

- الغالية تنتظرني في الدار يا بلفور أفندي..

(٢٧)

وجدتها سوزان فرصة لا تتكرر كثيرًا فهي حبيسة السرايا طيلة النهار ولا تخرج إلى نادرًا، إما إلى إلى القاهرة أو في سفر إلى أمها لندن.. ولم يبق لها في السرايا إلا أبوها والكلبان..

قال حسن يستعطفها قبل أن تقع الكارثة:

- يكفينا هذا القسط من المغامرة سوزان هانم.. والحمد الله أننا إلى الآن بعيدون عن الترعة..

ضحكت سوزان وازدادت نشوة مع نشوتها:

- نحن في طريقنا إلى الترعة يا حسن..

ارتبك حسن:

- أرجوك انحني يسارًا حتى نعود إلى السرايا..

هزت سوزان رأسها لترتاح من زنه مؤقتًا وعندما وصلت الترعة عبرت الكوبري، ثم انحنت إلى اليمين في اتجاه عكس اتجاه السرايا، لتضع حسن أمام أمر واقع فصارا مضطرين إلى الدوران دورة كاملة حول جنينة الموالح، ثم العودة إلى طريق السرايا، فمن العسير عليها أن تستدير على الطريق، ولن تترك حسن يفعل ذلك.. أصاب حسن اليأس فخلع الباريه وألقاه في الكرسي الخلفي مسلمًا أمره لله:

- يا رب نغطس في الترعة حتى تستريحي جنابك!

ضحكت سوزان بصوت عال، وسعدت بلهجته التي صارت أقل تكلفًا، ثم دخل معها حسن مفاوضات أخيرة:

- سأستمر معك كما تشائين سوزان هانم.. لكن أرجوك بهدوء

- أتخاف عليّ يا حسن

حسن بعفوية:

- طبعًا يا هانم

سوزان تنظر له سعيدة برده.. لكن حسن يتدارك الإجابة الذي يدرك أنها خاطئة بالطبع في وقت كهذا، ومع الإحساس الذي ينتابه منذ خرجا من السرايا، ومع الحرارة التي اشتعلت منذ قليل..

- الباشا ائتمنني عليك يا هانم..

انتبهت سوزان لشيء على الطريق أثارها، إنهما شابان ظريفان تستطيع أن تتسلى بمعاكستهما، انتبه حسن للشابين.. فقال يحذرها:

- ببطء أرجوكِ أمامك ناس..

زادت سوزان السرعة، تماوجت السيارة في الوحل.. فزع حسن وأدرك أن النهاية وشيكة، فاستعد للانقضاض على المقود، أدرك أنها تريد أن تعبث معهما:

- انتبهي يا هانم.. ابتعدي عنهما..

ضحكت سوزان:

- لا تخف.. سنلعب قليلًا..

ظل حسن يضغط على «الكلاكس» كي ينبههما، فالتفتا صالح وعبود اللذان أُخذا على حين غرة، أن السيارة شبه تطاردهما، فأسرعا أمامها هاربين.. وصاح حسن وهو يمد يده ناحية المقود وسوزان تدفعها:

- يا نهار أزرق.. صالح وعبود!

قفز عبود إلى جانب الطريق ممسكًا بشجرة، ولكن صالح تشتت ولم يدر ماذا يفعل ففر أمامها مسافة، لكنه سقط على وجهه وسقط القنديل من بين يديه، أسرع بعض الفلاحين القريبين من المكان يتابعون المشهد المضحك المبكي.. أخيرًا تمكن حسن من إيقاف السيارة رغمًا عن سوزان.. التي دخلت في هستريا ضحك، انتصب صالح أمام السيارة يحدجها بغضب، وحسن وضع يديه على وجهه يتنفس الصعداء، ثم فتح الباب وخرج ليوقف مفعول القنبلة التي نزعت فتيلها تلك المجنونة، فاعتنق فبدأ حسن بصالح ليهدئه لأنه يعرف أن ثوراته مثل ثورات أبيه:

- حمدًا لله على سلامتك..

ظل صالح جامدًا، ولم يأبه بحسن، فاقترب صالح سوزان وهو يتحرق غضبًا، ثم دنا من نافذة السيارة:

- جنابك تمرحين وتمزحين؟!

ثم بسط كفيه على الطين أسفل السيارة:

- نحن أيضًا نجيد المزاح..

ثم رفع يده ببطء ثم بسطها على وجه سوزان.. فتخشبت ولم تبد حراكًا، ثم تباسم صالح وقد نفس بعض غليله:

- ما رأي جنابك؟

سوزان كأنها خرست وعبود وحسن تسمرا مكانهما.. واستطرد صالح بطريقته:

- لو سألتني عن رأيي فأنت هكذا أجمل..

صرخت سوزان تستغيث.. لطم عبود وجهه مصعوقًا، وقفز حسن ثم تحرك خلفه عبود يدفعان صالح بعيدًا، قبل أن يضيف إلى الكارثة كارثة، وعبود يردد كالنادبة:

- يا نهار أزرق .. يا نهار أزرق يا صالح.. ابنة الباشا أيها المجنون..

جذباه إلى الخلف بعيدًا عن السيارة، أخيرًا نطقت سوزان، وقد اطمأنت بعدما أبعده حسن عنها:

- حيوان.. حيوان.. حيوان!

فتفلت صالح منهما فدفعهما من أمامه فلم يقويا على منعه:

- اخرسي بل أنت الحيوانة الغبية المغرورة..

خرست سوزان، وعاد عبود ليضم صالح بقوة بين يديه وهو يقبل رأسه وكتفه ويكاد يبكي:

- أتوسل إليك اهدأ.. سنذهب جميعًا إلى السجن..

أسرع حسن وفتح الباب ليدخل إلى كرسي المقود مكان سوزي التي أخذت تصرخ وتبكي، فتحركت هي قليلًا بعيدًا عن المقود.. وعبود

اقترب من باب السيارة وحاول أن يظهر لها أنه يعتذر، فلا يجد ما يقوله فيدرك أن الأمر قد قضي ولا سبيل إلى إصلاحه.

تراجع حسن بسرعة إلى الخلف هربًا من غضب صالح.. ثم استدار وسط الطريق بصعوبة.. ظل صالح يهمهم بالسباب، وعبود يقف متصلبًا يهز رأسه كالثكلى، ثم صاح في صالح:

- ماذا فعلت أيها المجنون! ضيعتنا!

نظر صالح إلى عبود وهو يكظم غيظه، فأردف عبود:

- الباشا لن يتركنا..

استدار صالح غير آبه بما حدث:

- فليشربا من الترعة..

تسمر عبود مكانه ولم يتحرك، ثم شيع صالح بنظرة تأنيب وسخط:

- سامحك الله.. سامحك الله..

ثم عكس عبود اتجاهه واستدار للخلف عائدًا من حيث أتى، فوجئ صالح بتصرفه، فسعى خلفه يناديه:

- عبود.. عبود..

لكن عبود لم يستجب، ومضى في طريقه..

(٢٨)

جلس فيصل على رأس الأرض قرب حقل النوحية يتسامر مع أبوالسعد، وبالقرب منهما عبد المجيد يحش البرسيم بسرعة.. أجاب أبوالسعد على فيصل:

- شيخ الخفر هو الذي أخبرني.. وأكد لي أن الدوار مقلوب والباشا عنده إسهال!

فضحكا ضحكة عالية، والتفت لهم عبد المجيد، وألقى بالمنجل ثم تقدم نحوهما:

- لا تضعوا كل أحلامكم على كتف حمزة.. حمزة أصابه الشيب..

فكظم فيصل غيظه من تثبيطات عبد المجيد المستمرة:

- الهيبة لا تشيب يا عبد المجيد.. نحن في حاجة فقط إلى من يجمعنا.

- وهل أنتم نعاج في حاجة إلى من يسوقكم يا فيصل؟

انتصب فيصل غاضبًا:

- اختر ملافظك يا عبد المجيد!

- أوجعتك كلمة الحق يا فيصل!

- الحق أنك رجل ناقص يا عبد المجيد

- لم نفسك يا فيصل..

وقف أبوالسعد يحجز بينهما، ويصيح:

- كفاكما.. أنتما بالفعل نعاج وناقصين..

على مقربة من هذه المشادة الكلامية كان جمل النوحية يستعد للمرة الثانية للنهوض مغادرًا الغيط، وقد تبدل الراكبون؛ حيث علاه بشر الذي يجلس متمكنًا خلف السنام بحكم خبرته، وقد وضع بين ذراعيه مصطفى الصغير الذي وضع مزمار البرسيم بين شفتيه وأخذ ينفخ فيه ويصفق سعيدًا ويلوح للأطفال الواجمين أمام الجمل ليزيدهم غيظًا، وهند تمرر يدها على ذقنها متوعدة إياه، وهو يرد عليها بنفخات المزمار.

(٢٩)

أخرجت حلاوتهم البط الصغير من «الحواش» الخارجي، وهشته أمامها ببطء حتى أدخلته حجرة زينب؛ حيث المبيت، وبحر تجلس عند رأس زينب تمسح عرقها، وتتمتم بالأذكار والأدعية، وقد بدت زينب خائرة القوى وقد انطفأ وجهها وشحب لونها كأنها تقاوم معركة بداخل بطنها.. أدخلت حلاوتهم البط وأغلقت «الحواش» بقطعة خشب، ثم أخذت إناء المسقى الفارغ وأشارت به لبحر، فلم تعلق بحر ولم تهتم، بل عادت بنظرها لابنتها صاحبة الولادة الغريبة.. فتحت زينب عينيها بضعف:

- سأموت يا أمي!

تماسكت بحر:

- كفانا الله الشر يا حبيبتي.. إنه الطلق وآلامه

أحاط التعب بزينب وقيدها من كل جانب فهي لا تستطيع أن تحرك إلا عنقها وتفتح عينيها ببطء وضعف كأنها تكشف غطاء ثقيلًا، حتى إن حلاوتهم نفسها رقت أخيرًا وأشفقت عليها وأحست بأن الأمر جد لا هزل، فدنت منها وقالت مشجعة:

- الباش حكيم على وصول يا زينب سيخلصك من هذا المولود الشقي..

- لا أريد أولادًا.. أريد أن أعيش..

بدت كلمات زينب كأنها مقتبسة من قاموس عبد المولى، وقلب بحر يكاد يتمزق على ابنتها، والفرحة التي كانت تنتظرها اختُطفت منها نهارًا جهارًا قبل تمامها، وحلاوتهم شعرت بأن الليلة قد تكون حصاد الأعوام السابقة من الآلام، فجلست على الأرض حزينة تنتظر ما هو آت، فساد صمت قليل.. خشيت بحر من الصمت فسعلت حتى تقطع ذلك الصمت، لكن لم ينفع سعالها لحظة لا ينفع السعال، فقطع صمتهم صوت نجية تصرخ من الداخل:

- عبدالمولاااااااا

(٣٠)

جلس الشيخ سلامة في صحن المسجد الجديد يدندن بما يحفظ من القرآن ويهتز معه، فجأة توقف عن الدندنة فقد أحس بقادم من ناحية الباب، إنه خليفة قد جاء زائرًا لأول مرة، نظر خليفة يتأمل المكان حوله، ثم ألقى السلام:

- السلام عليكم

توجس سلامة من زيارة أخيه، وذهب ذهنه إلى مكروه حدث لعبد المولى:

- وعليكم السلام.. تعال يا خليفة..

جلس خليفة أمام أخيه ينظر إليه، ويجهز جمل الحوار، مرت لحظات صامتة، والشك يتأكد لدى سلامة:

- انطق يا خليفة ماذا حدث؟

تنحنح خليفة نحنحاته المعهودة؛ كي يزيل التوتر الذي يصاحب جلوسه مع سلامة دائمًا، كما كان حاله وهو يجلس بين يدي حمزة، فصاح سلامة:

- عبد المولى حدث له مكروه..

لم يجد خليفة بدًّا من البدء:

- الباشا هددني يا سلامة..

تنفس سلامة الصعداء ونفخ الهواء في وجه خليفة، وقال بغضب:

- داهية تأخذك أنت والباشا!

امتص خليفة غضب أخيه؛ لأن هذه حالته المزاجية الطبيعية، وقال بهدوء:

- أنا أخشى عليك يا سلامة..
- أنت تخشى على البكوية يا خليفة..

ضغط خليفة على فكيه متحاملًا:

- إنهم يخططون لقتلك..
- يكفيني خمسة وخمسون عامًا على هذه الأرض مع تلك الوجوه الكالحة..
- سيعوضونك أرضًا داخل عزبة نوح..
- ليتهم يعوضونني أخا بدلًا منك..

أراد خليفة أن يتم المفاوضة لكن سلامة، أمسك بعصاه وقال محذرًا:

- اخرج يا خليفة من هنا..

ثم صاح:

- اخرج يا خليفة..

فنهض خليفة غاضبًا وضبط شاله على كتفه:

- أنت تستحق ما سيجري لك يا سلامة..

(٣١)

قاد حسن السيارة ببطء، وقد خلع سترة السائق التي يرتديها وبقي بفانلته الصوفية، يتابع سوزان التي تصرخ وتشتم وتسب وهي تمسح وجهها بسترته.. فظل ساكتًا حتى هدأت، ثم همس لها بأدب وتوسل:

- حقك عليّ سوزان هانم..

لكن سوزان انفجرت ثانية:

- هؤلاء كلاب أولاد كلاب.. ولابد أن يجلدوا..

تحكم حسن في انفعاله جيدًا، وظل محافظًا على هدوئه المعتاد؛ فهو يعرف أن الجريمة كبرى وتستحق التحمل، وإلا العاقبة ستكون وخيمة:

- يا سوزان هانم امسحيها في هذه المرة!

ثم نظر إلى سترته متباسمًا:

- بل أنت بالفعل مسحتيها..

لكنها ترد بانفعال وقسوة:

- أبدًا.. يستحيل.. هؤلاء حيوانات ولن يفلتوا من العقاب..

امتص حسن هذه السبة أيضًا، وضغط على فكه، وبلع لعابه، ثم قال في تأنيب مهذب لعله يكون مدخلًا مناسبًا كي تفكر في الأمر بشكل الآخر:

- سوزان هانم.. جنابك أخطأت أيضًا..

التفتت له سوزان متنمرة معتبرة أنه هو الآخر يتجرأ عليها، وألقته بجملة لم يكن يتوقعها:

- ماذا تقول أيها الغبي؟

صعق حسن، لكنه بلع حسن المهانة للمرة الثالثة، لكنها استطردت في هياجها:

- أنا حرة.. أفعل ما أريد.. لكن هؤلاء كلاب أولاد..

هنا فاض الكيل بحسن فقاطعها صائحًا ملوحًا في وجهها:

- يا هانم كفاك!

أوقف حسن السيارة فجأة..

- يكفينا ما نالنا من سبابك! أنت من أخطأ في حقهما وأيضًا تشتمين!

سكتت سوزان دهشة، ثم ابتسمت كأن غضبته أرضتها، وثم قطع حسن صياحه، وأخذ نفسًا عميقًا كي يعود لحالته؛ فقد رأى أنه تجاوز الحد.. فأبدى ندمه سريعًا:

- آسف.. سامحيني يا سوزان هانم أنا آسف وهم آسفون.. أصل حضرتك أيضًا..

قاطعته وقد عادت لتدللها في حالة انقلاب غير مبررة، كحالات يعقوب:

- تجنن وأنت تصيح!

التفت لها حسن مندهشًا من رد فعلها:

- ماذا؟

سوزان تؤكد ما قصدته:

- أنت أكثر وسامة في غضبتك..

استحيا حسن وابتسم وأحنى عنقه، واستراح للانتقال بالحوار إلى منطقة واسعة هادئة بهذه السرعة، فتأكد لديه أن القضية على وشك الانتهاء، فتابعها في حوارها بابتسامة:

- زينب تقول لي ذلك..
- من زينب؟

انشرح صدر حسن، فتابع بتبسط أكثر، عساها تنسى ما جرى:

- زينب جماعتي.. الفاميليا.. الماي وايف..
- إنها محظوظة!
- عمة بحر تقول لي ذلك أيضًا..
- من عم بحر؟

ضحك حسن من عفوية سؤالها، ولأنه أوشك أن يخرج من الكارثة التي وقع فيها النوحية:

- كلا.. عمة بحر.. واحد سيدة.. امرأة عمي حمزة النوحي العمدة السابق.. وهي سيدة دار النوحية الأولى، وهي أيضًا أم صا...

سوزان مقاطعة، وقد لمعت عيناها بشيء لم يفهمه حسن إلى الآن، أو ربما فهمه منذ البداية لكنه يتغابى ملتمسًا لها عذر المراهقة، وملتمسًا لتغافله عذر أنه بمثابة خادم:

- لن أخبر أبي بما فعل هؤلاء الهمج..

صفق حسن بحرارة كالأطفال سعيدًا بتلك النتيجة، ثم التفت لها محييًا، وألغى التكليف بينهما:

- والله أنت هانم مجدع.. كنت واثقًا من قلبك الكبير..

لكنها أردفت على طريقة السماسرة:

- لكن..

بلع حسن لعابه، والتفت لها لأنه يعرف (لكن) جيدًا فهو أكثر نوحي يستخدمها، فتابعت سوزان:

- لكن بشرط صغير..

فابتسم وأرهف سمعه لها في انتظار الشرط، فمهما كان شرطها سيكون أيسر من إخبار الباشا بما حدث، فنظرت إليه بشهوة في انتظار أن يفهم الشرط دون أن تصرح به، ثم اقتربت منه ومالت بجزعها عليه تتلو عليه الشرط..

(٣٢)

خرج الشيخ سلامة من المسجد إلى الكوخ، وقبل أن يفتح باب الكوخ، ناداه فيصل:

- شيخ سلامة!

التفت سلامة، وانتظر ثواني يميز الصوت:

- فيصل؟

- نعم يا شيخ..
- تفضل..

فقال فيصل بدون مقدمات:

- سأقتل يعقوب الليلة!

أُخذ سلامة من تهوره وتصريحه هكذا، فتلفت حوله يستكشف المكان كأنه يرى، ثم سكت سلامة برهة يفكر كيف يهدئ هذا الطائش، ثم قطع فيصل عليه إجابته قبل أن ينطقها لأنه يتوقعها:

- أرجوك لا تقل لي مواعظ يا شيخ..

فسكت سلامة قليلًا ثم قال باسمًا:

- عملي هو المواعظ يا فيصل.. وموعظتي أقولها لك وافهمها كما تريد: حمزة تقرب إلى الله بقتل زبيبة..

ثم تركه ودخل كوخه..

(٣٣)

أوقف حسن السيارة بعنف قريبًا من حديقة السرايا، ثم التفت لسوزان، وألقى في وجهها المفاتيح:

- اسمعيني أيها الناقصة.. كلمة محشورة في حلقي منذ أن قبلت أن أنحني بين أيديكم وأكون حماركم المطيع.. طظ في جنابك..

صعقت سوزان من هجوم حسن أكثر مما صعقت من فعلة صالح، واتضح أن هذا هو يوم نحسها الأكبر، ثم أردف حسن ليؤكد لها أن ما سمعته هو مقصده، فهز عنقه للأسفل:

- أي نعم.. ما سمعتيه..

ثم سكت مترددًا، يبحث عن جملة أخرى تخرج ما بقي بداخله من تجمعات الغيظ، فحصل عليها سريعًا، فأردف:

- وبالمرة ما دامت الجلالة أخذتني وعرق الشجاعة انفجر.. طظ في جناب الباشا أيضًا.. «إن شا الله ما حد حوش»!

ثم فتح حسن الباب وخرج، ثم أغلقه خلفه بعنف، ثم انتبه لحاله إنه بالفانلة الصوف فقط، فنظر إلى السترة بين يدي سوزان التي سكتت تتابعه دون أن تحرك ساكنًا كأنها تجمدت فجأة، ثم نظر إلى البنطال مترددًا، ثم مد يده وفك الحزام، وخلع البنطال فصار بطاقمه الصوف لا غير.. ثم ألقى البنطال في وجهها:

- وهذا ما لكم عندي أيها الهمج..

ثم انصرف، ثم تذكر شيئًا فعاد، وهي لا تزال جامدة كالصنم:

- لا تنسي تغسلي الطين.. يا ناقصة يا قليلة الحياء..

انصرف حسن غير آبه، وانفجرت سوزان:

- حيوان حيوان حيوان!

عاد حسن بصورة مفاجئة ينظر لها من الزجاج ويضرب على السيارة متوعدًا، فسكتت مذعورة، لكنه أمسك لسانه، وقال:

- للأسف أنا أكثر أدبًا من ابن عمي..
ثم تراجع عنها ومضى في طريقه..

(٣٤)

استند عبد المولى على نجية وبحر عائدًا من «الكنيف» الذي يمكث فيه أكثر مما يمكث على فراشه.. وضعتاه على الفراش منهكًا وهو يتأوه وينازع مثل زينب، استلقى مستسلمًا كأنه ينتظر ملك الموت.. استرخت أعصابه تمامًا.. ثم أغمض عينيه يبحث عن غاز النعاس، ساد الصمت حينًا بين بحر ونجية في انتظار التأكد من نوم عبد المولى، لكن أنفاسه أو على الأصح حشرجاته لا تمكن السامع من معرفة خبره..

(٣٥)

وقف خليفة قرب المعدية، منتشيًا وقد تبدلت كآبته بابتسامة عريضة، وأمامه ابن العمدة ينتظر النطق بالحكم، فقال خليفة:

- هذا شرف لنا..

فكاد ابن العمدة يقفز من الفرحة، فاحتضن خليفة بسعادة طفولية، لكن بعد لحظات، شعر خليفة وهو الخبير في هذه الأمور أنه تعجل في

الإجابة بهذه الطريقة، فحاول أن يعطي لنفسه ولابنته قيمة أعلى، فقال:

- ولكن..

اعتدل ابن العمدة في وقفته، ونضبت بشاشته:

- ولكن ماذا يا عم خليفة؟

- دعني أستشيرها..

فاندفع ابن العمدة المنتشي:

- إنها موافقة..

فنظر إليه خليفة غاضبًا من هذا التصريح الأهوج الذي يعني الكثير، فبلع ابن العمدة لعابة، ولم يدر كيف يخرج من هذه السقطة، لكن خليفة رأى أنه من الأفضل أن يتغابى؛ لأنه يعلم كل شيء تقريبًا عن ابنته حتى مقابلاتها بهذا الأحول، ففرد عبوسه قليلًا حتى يعطي فرصة للشاب المتلعثم بطبيعته أن يهرب من المأزق، وبدوره صحح ابن العمدة الخطأ الشكلي بشكل شكلي، فأردف:

- أقصد موافقة إن شاء الله.. أنا متفائل خير..

- لكن سنؤجل الخطبة بضعة أسابيع أنت تعرف ما نمر به الآن..

هز ابن العمدة رأسه مؤيدا:

- أقدر بالطبع..

ثم تذكر أمر حمزة النوحي، وما قالته الجازية ففكر في إخباره عساه يعجل بالأمر، ثم تردد ثانية فقد يكون الخبر محبب إلى نفسه ويأتي بما لا يريد، فقال يمهد للأمر:

- ولكن..

نظر له خليفة مستفهما:

- عمي حمزة..

ثم مصححًا:

- العمدة حمزة..

- ما به؟

- قد يعود قريبًا..

اندهش خليفة من استدراك ابن العمدة الذي لا يعني شيئًا، فأوشك أن يجيب سريعًا داعيًا الله أن يعود، لكنه تأنى وفكر برهة، ثم أطرق إلى الأرض وقد فهم ما قصده ابن العمدة، وفهم أيضًا أن الأمر قد مر على ابنته، وأنها بالتأكيد صاحبة الإيعاز:

- لا مانع أن نقرأ الفاتحة الآن..

فمد ابن العمدة يده سعيدًا وقبض على راحته قبل أن يغير رأيه:

- بسم الله الرحمن الرحيم.. الحمد لله رب العالمين..

ثم شرد نظر خليفة رغمًا عنه اتجاه الدوار، فها هو قد أنجز إحدى الجولات..

(٣٦)

بدأ الطلق يركل جوانب زينب وبدأت تعلو تأوهاتها وتريد أن تتقلب فلا تستطيع، ودارت بحر حولها ذاهبة آيبة قلقة لا تدري ماذا تفعل، ثم توجهت إلى حلاوتهم بالاستغاثة:

- الطلق سيقتلها.. الولادة ليست طبيعية.. أشيري عليّ يا حلاوتهم

نهضت حلاوتهم وشدت شالها على رأسها:

- سأذهب سريعًا إلى القابلة..

- لا تتأخري أنت الأخرى وتتركيني بهذا الحال..

خرجت حلاوتهم مسرعة.. تأوهت زينب، وقد أفاقت قليلًا من حالها، ومدت بحر تمسح من على جبينها العرق:

- أغيثيني يا أمي سأموت..

نظرت لها بحر في أسى، ثم قالت تمازحها:

- خيبك الله.. كانت أمامك السنة طويلة..

تحاملت زينب على نفسها:

- يا بحر..

فاقتربت منها بحر في اهتمام، فقالت زينب بضعف:

- قولي الحق..

ثم سكتت تلتقط أنفاسها، وبحر تشجعها على الكلام، فأردفت زينب:

- ألست غيرانة مني؟

نظرت لها بحر مغتاظة، ثم تباسمت:

- ارحمي نفسك قليلًا.. أنت على فراش الموت.. يا ساتر!

- إذن أنت كذلك!

نظرت لها بحر بغيظ.. ثم لا تتمالك نفسها فضحكت رغم ما بها، وقالت:

- نعم أنا كذلك..

(٣٧)

وقف الباشا ينتفخ غضبًا ويهتز فيهتز كرشه معه، ويعقوب القصير يتلصص من خلف ظهر الباشا يكتم سعادته، وهما يستمعان إلى حكاية سوزان التي تنتحب بشدة وآثار الطين على وجهها، فقال الباشا وهو يضغط على أسنانه:

- الأوباش..

ثم تقدم يعقوب بجوار أذن الباشا:

- يا للسفالة! ألم أقل لجنابك.. إنهم جوييم..

تحرك الباشا في مكانه يبحث عن أي شيء ينفث فيه غضبه، ثم استدار للخلف والتقط السوط المعلق، ثم ضرب به الهواء بعنف فانتفض يعقوب كأن الضربة عليه:

- الحيوانات سأقتلهم جميعًا..

ثم تذكر الباشا شيئًا:

- وماذا فعل حسن زفت وسط كل هذا؟

سكت قليلًا تفكر، ودت أن تعاقب حسن، ولكنها لا تدري إلى أي مدى قد تصل عقوبة والدها، فقد يختفي حسن تمامًا وهي لا تريد ذلك، فقالت متلعثمة:

- صاح فيهما وصفعهما..

هدأ الباشا قليلًا وقد توقع ذلك من حسن، ثم سألها السؤال الأهم:

- هل شاهدكم الفلاحون؟

هزت سوزان رأسها آسفة، فنفرت عروق الباشا ثانية وضرب بالسوط على الفوتيه:

- الكلاب.. يريدون أن يهينوني كما فعل كلبهم الكبير

ثم التقط أنفاسه، وحاول يعود لهدوئه:

- ادخلي الآن اغسلي وجهك..

ثم تقدم الباشا ناحية التليفون ورفع سماعة التليفون.. ويعقوب يتابع مبتسمًا، ثم تذكر شيئًا، فاقترب من الباشا وهو يدير القرص:

- إذا أذنت لي جنابك.. إنها فرصة جيدة لمعاقبة سلامة نفسه..

- سأحرقهم جميعًا..

ثم قدم يعقوب إضافة أخرى:

- إذا أذنت لي جنابك.. صالح لديه مهمة أخرى اليوم..

فهز الباشا رأسه وتابع إدارة القرص.. فابتعد يعقوب خطوات وهو يبتسم ابتسامة تشف، ثم قال يهمس لنفسه:

- التاريخ يعيد نفسه يا حمزة.. النوحية أغبياء..

(٣٨)

انثنى صالح من الطريق الرئيسي إلى الطريق المؤدي إلى وسط «عزبة نوح»، بعد خطوات ظهرت أمامه فاطمة تسير وحدها بالبلاص وقد سبقتها الجازية بمسافة، اهتز أحد أوتار قلبه فخرج الصوت نغمة جديدة وهو ينادي مترددًا:

- فاطمة!

لم يصلها الصوت بحسب القانون الطبيعي للفيزياء، لكن للهوى قوانين أخرى، التفتت فاطمة المهمومة المكتئبة الحانقة على ابنة عمها المشغولة بابن عمها، رأته، كاد البلاص يسقط من على رأسها، بل فكرت أن تدلقه على نفسها كي تتأكد أنه أمامها، صاحت سعيدة:

- صالح!

في هذه اللحظة تأكدت الإشاعة التي روج لها قلبه وقلبها، ولو التفتت الجازية خلفها لم تكن لتتردد في رد الصفعة صفعتين، فالتي عايرتها بعشقها منذ لحظات، هاهي الآن على وشك الصياح بحبها.. دنت منه مسرعة فارتج الماء في البلاص فقفز من حوافه، فبلل ووجهها فازداد بهاء وجمالًا:

- حمدًا لله على سلامتك..

تسمر صالح أمامها كأنه يراها للمرة الأولى.. إنها غزت خياله منذ شهور في جلسات الفكر والفلسفة والتقليب في تاريخ النوحية وعزبة نوح، كان قراره عقليًّا محضًا، لكن الآن القلب يرفع يديه بالراية البيضاء ويدق طبول السلام، والعقل يقول أين كنت أيها الأحمق منذ سنوات، كيف لم تلتفت لذلك الجمال..

مد صالح يده يصافحها، مدت يدها، كانت لحظة احتضان وليست مصافحة، تسربت قشعريرة في جسدها فجذبت فاطمة يدها سريعًا درءًا للفتنة، لكن عينيها ظلت مستسلمة لعينيه، تروي ظمأ الكتمان والحرمان، أخيرًا أفاق صالح، فسعل مرتبكًا ثم قال:

- دعيني أحمل معك؟

انعقد لسانها فقد رفع قلمها وجفت صحيفتها، فحكايتها تم اختصارها في لحظات فبدأت وتعقدت وانتهت على خير ما يرام.. ثم ابتسمت

وهزت رأسها بالإيجاب وسلمته إحدى أذني البلاص ومع البلاص قلبها..

***

غروب

طريق وجسور قصيرة متقاطعة على خريطة «عزبة نوح» ومؤدية كلها إلى دار النوحية.. يجيء الأطفال بالجمل من إحدى النواحي، ومن أخرى جاء خليفة مطأطئًا شاردًا يضرب الأرض بعصاته سعيدًا بصفقة ومتجهمًا من صفعة، ومن خلفه جاء حسن خافًّا بطقمه الصوف يطوي المسافات قبل أن يراه أحد الفلاحين في سترته الجديدة فيشمت الشامتون، ومن ناحية أخرى جاءت الجازية تمشي في غرور، ومن خلفها صالح وفاطمة يتهاديان بالبلاص فرحين بميلادهما الجديد..

دنا الجميع من دار النوحية.. غشيهم برق احتفالًا بهم.. ومدت الدار ذراعيها تستقبلهم في حضنها وتسألهم الإسراع نحوها.. ثم دوى الرعد نذيرًا وبشيرًا..

(٣٩)

جلست بحر مستندة على قائم الفراش الخلفي ترقب زينب مشفقة، وتتألم مع آهاتها كما كانت تتاغم منذ قليل مع غنائها، ومع طول الطلق وشذوذ أعراضه صارت بحر متوجسة من حالة ابنتها.. أرادت زينب أن

تنقلب إلى جنبها عل الطلق يهدأ فمالت بشقها ورفعت شـقها الآخـر، لكنها لم تستطع إكمال المحاولة فاستسلمت لوضعها.. دخلت حلاوتهم تلتقط أنفاسها وتخفف ربطة طرحتها، فنزلت بحر من الفراش تسـتقبلها في اهتمام:

- أين القابلة؟

- ليست في الدار.. ذهبت بابنها إلى الإسبتالية..

تململت بحر وزفرت في ضيق:

- ما بها قد أوحلت وأُغلقت من كل اتجاه! أستغفر الله العظيم..

عادت إلى زينب تتحسس رأسها، وتنظر إليها في عيونها الـتي غـارت.. مضت فترة صمت.. لم يعد بديها حيلة، فترقبت بحر مفاجأة مـا بعـض الصمت في استسلام.. أرهفت سمعها.. فجاء صوت المؤذن منسـابًا في سلام:

- الله أكبر الله أكبر..

شـهقت بحـر بعمـق وتلقفـت الأذان بنشـوة، إنهـا كانـت في انتظـاره، أغمضت جفنيها باسترخاء وأفسحت صدرها ليلج الهواء، ثم نهضـت واقتربت من النافذة تحتضن الصوت وتحرك عنقها بانتشاء كأنها عاشقة تشتم ورود حبيبها، ثم رفعت يديها، تهمهم بالدعاء، وصـوت الرعـد يعارك صوت الأذان في السماء، والمطر بـدأ يلطـم الجـدران والسـقف بقوة تمهيدًا لليلة شتاء..

- الدنيا رخت يا عمة..

صارت بحر أهدأ حالًا، كأنها مريض تناول الدواء:

- خير.. المطر خير

ثم عادت بحر لمكانها في مؤخرة الفراش مستندة إلى القائم، وانصرفت حلاوتهم تنظم شؤون الدار فقد فرض عليها الواقع أن تتسلم بعض مهام سيدة الدار.. ساد الصمت برهة في الحجرة إلا من تأوهات زينب.. ثم قطعه صوت مصطفى الصغير يصيح من الخارج بحماس:

- ستي يا ستي يا ستي..

ارتعشت بحر وانتفضت وقفزت من على الفراش، واعتبرته بداية الفرج:

- مصطفى حبيبي!

دخل مصطفى الصغير مبتلًا والمزمار لا يزال في يده، ففتحت بحر له ذراعيها سعيدة فطار في حضنها، وهي تردد:

- حبيب ستُّه.. حبيب سته..

- انظري هذا مزماري..

أغرقته بحر بقبلاتها في أنحاء جسده، ثم سحبت شالها من على رأسها لتنظف له ثيابه وتجفف عنه البلل:

- أين كنت يا عفريت؟

ثم جاء الفرج الثاني، ووقف صالح على عتبة الباب باسمًا:

- أفسح لي مكانًا أيها العفريت..

صاحت بحر واندفعت نحوه تحتضنه:

- ولدي..

(٤٠)

خرج يعقوب من السرايا مسرعًا، متجهًا نحو داره مترقبًا متوجسًا خائفًا يخشى أن يدركه الظلام فينفرد به في الخلاء، فيدركه أحد الفلاحين المتربصين به بحسب تخمينه، يعلق بكتفه بندقية (خديوي) مجرية تتسع لأربع طلقات منحها له الباشا زيادة في تأمينه، ويسحب خلفه كلبيه الأسودين الضخمين اللذين يتبعانه كظله في كل مكان، ويضع على رأسه بقية شكارة بلاستيك مفتوحة من أحد جوانبها ليدفع بها المطر، ويحمي رأسه العارية بعد أن استولى كلبا الباشا على طاقيته.

يتوقف يعقوب بعد كل خطوتين على الجسر بين حقلي الفول يلتفت يمينًا ويسارًا، ثم يدور بشكل مفاجئ للخلف، ليتأكد أن أحدًا لا يختبئ له هنا أو هناك.. ثم يمضي في الطريق.

الرعد يزيده رعبًا، وكلما أبرقت السماء وضع يده على وجهه بسرعة كأنه يتفادى نارًا، سمع خشخشة خلفه، تخشب مكانه، وضع يده على سير البندقية، نظر بتوجس إلى جانبيه دون أن يحرك عنقه، ثم انتفض وسحب البندقية والتفت خلفه بشكل بهلواني كأنه يفاجئ عدوه.. ثم لا أحد كالعادة..

اقترب من الـدار، إنهـا في قلـب الحـوض البحـري الـذي كـان ملكًـا للنوحية، ثم آل معظمه عن طريقه إلى الباشا، لكنه توقف ثانيـة عنـدما رأى خطرًا حقيقيًّا، فكان صوت سلامة في استقباله بالأذان مـن أعلـى المسجد الجديد، فضغط على فكيه ممتعضًا، وتوقف قليلًا ينظر إليه وهو يتمتم:

- قريبًا يلحق صوتك ببصرك أيها الأعمى!

ثم خف ناحية الباب، حيث يوجد في خـارج الـدار كوخـان صـغيران بنيت جدرانهما من الطين والبوص، وتمت تغطيتهما بالحطـب والقـش فصارا أفضل حالًا مـن كـوخ سـلامة.. أدخـل يعقـوب كـل كلـب في كوخه، وسحب سلسلة حديدية موصولة بباب الكوخ فربط الكلـبين.. ثم التفت خلفه فجأة دون سـبب.. ثـم دار حـول الـدار دورة بطيئـة، يطمئن على اسـتتباب الأمـن في وكـره المـوحش، والـذي زاد وحشـة بالشجرات المتناثرة حوله، وحقول الفول التي تطوقه فضلًا عن زخـات المطر.

ثم عاد يعقوب بخفة إلى الباب ففتحه سريعًا ودلف إلى الدار هاربًا مـن المطر، ثم أغلق الباب بإحكام، ثم خلع الشكارة واستدار ينظر نظـرات ريبة وسط الظلام الذي غطى بهو الدار بشكل كامـل.. الـدار متسـعة يزيدها اتساعها إيحاشًـا، إنهـا بنيـت حـديثًا بإشـراف أحـد المهندسـين التابعين للباشا، أثاثها أفضل بكثير من ثياب يعقوب، بل بدا أن أغلبـه منقول من السرايا.

تحرك يعقوب ببطء وهو يتسمع لكل حركة من حوله.. أخرج علبة الثقاب من جيبه ثم قفز نحو المصباح الموضوع في الكوة ليشعله، ثم أسرع نحو مصباح على صندوق الملابس ثم مصباح معلق ناحية الكنيف، حتى صار ليل الدار نهارًا.. فابتسم يعقوب وتنفس الصعداء في أمان، ثم تذكر باب الحظيرة فأسرع نحوه مرتبكًا وأغلقه بإحكام.. ثم وقف برهة وسط الدار، إنه يسمع صوتًا، ليس خيالًا، ربما يكون أحد الفلاحين قد كمن له تحت الأريكة أو في الكنيف أو على سطح الدار، استدار ببطء مرعوبًا.. نظر حوله في المكان، فتش خلف الأثاث، لم يجد شيئًا.

ثم فجأة قطع الصمت نباح الكلبين في الخارج، فانتفض يعقوب مذعورًا وقفز فوق الأريكة وسحب بندقيته ليستعد.. طرق من بالخارج على النافذة بقوة، ففتحت إحدى الدرفتين، فظهر خلفها جزع رجل غطى رأسه بكوفية ولم تتضح ملامحه في الظلام بالخارج.. فصرخ يعقوب مذعورًا ووضع أصبعه على الزناد وصاح:

- من؟

(٤١)

فردت فاطمة الحصيرة الجريد الكبيرة وسط المنضرة، استعدادًا للعشاء فملأت الفراغ بين الأرائك، ثم استدارت للمصباح الكيروسيني فخلعت الغطاء الزجاجي ونظفته بكم جلبابها، ثم أضاءته من شمعة موضوعة في الكوة، ثم خرجت أمام المنضرة وتناولت حصيرة أخرى

مكورة وموضوعة إلى جدار الكنيف ففردتها أمام المنضرة؛ حيث السقف ممتد مع بروزات الخشب من المنضرة إلى الفناء موصولا بحجرة عبد المولى.. وهذا المكان يجهز كل ليلة تحسبًا للزيادات التي تخرج عن المنضرة، وغالبًا ما يجلس عليها سيدات النوحية أو الأطفال.

جلست هند والأولاد بجوار القنديل يتطلعون إليه بفضول، لكن لا يعرفون له مدخلًا ولا مخرجًا.. أشارت فاطمة إلى هند:

- تحركي يا مدمزيل.. هاتي الأطباق وأخرجي الأبرمة من الفرن..

ضربت هند فخذها مغتاظة متململة واتجهت ناحية حجرة الفرن، ثم استدارت فاطمة لتضبط وضع المصباح المعلق بجوار نافذة المنضرة المطلة على الفناء، ثم أخذت مصباحًا آخر موضوعًا في عمق النافذة، وأشعلته لتعلقه على الجدار خارج المنضرة.

خرجت الجازية من حجرة أبيها وبين يديها مصباح كيروسيني، فهذه ساعة المصابيح، التفتت إلى بشر الجالس في مقدمة الحظيرة، وبجواره سراج مكشوف[1] يستضيء به لينظف ظهر الجمل من بقايا البرسيم وقطرات المطر.

- أبوك يريدك بالداخل أيها الجمّال..

---

(١) - يسمونه لمبة كشف، وهو عبارة عن علبة أسطوانية من الصفيح، موصل بها فتيل سميك يشتعل دون زجاجة تغطيه.

بدا بشر منهمكًا في عمله، فرد على شقيقته دون أن يلتفت إليها:

- سأنتهي من الجمل أولًا..

سمعت فاطمة صوت الجازية، فتعمدت ألا تلتفت نحوها وتشاغلت بالمصباح بين يديها، فقد قررت خصامها بعد ما حدث بينهما.. رمقت الجازية فاطمة من مكانها وقد قررت هي الأخرى ما قررته فاطمة، فتوجهت الجازية ناحية وعاء الجاز الكبير بجوار المنضرة، ثم جثت على ركبتيها لتملأ المصباح في صمت.. خرج صالح من حجرته وقد استبدل بملابسه جلبابًا فضفاضًا من جلابيب أبيه، لفته وجود الاثنتين كأنهما تتعمدان الاستعراض أمامه، وقف لحظات ينظر إليهما دون أن يشعرا كأنه يقارن بينهما من جديد..

أنهت الجازية مهمتها سريعًا ووضعت «الكوشة» على وعاء المصباح وأحكمت ربطها، ثم جذبت الشريط القماشي من فتحة الكوشة، ثم كورت ورقة وأدخلتها في زجاجة مصباح مشتعل ثم أوقدت مصباحها، ثم وضعت زجاجة المصباح واستدارت منصرفة ناحية حجرة أبيها.. فوجئت بصالح أمامها فارتبكت، هي تحاول أن تجمد مشاعرها وإن كانت قد ماتت نهائيًّا، لم تدر ماذا تفعل، فلم تجد بدًّا من تكرار التحية:

- حمدًا لله على سلامتك يا باش حكيم..

على ذكر الباش حكيم الذي لم تكن تشعر بوجوده هي الأخرى، التفتت فاطمة نحوهما باهتمام ترقب لقاءهما لتحلل وتفسر.. فرمقتهما

تتفحص حال صالح الجديد، فجاءت الإجابة كما تهوى فاطمة فرد صالح بجملة قصيرة باردة:

- الله يسلمك..

ثم انصرفت الجازية إلى حجرتها في سلام.. استراحت فاطمة بهذا المشهد التقليدي البارد الذي يؤكد خيالها، فوقفت تنظر ناحية صالح الذي التفت هو الآخر لها فصرفت بصرها وتشاغلت بالمصباح مرتبكة.. تنبه صالح للأولاد وهم يعبثون بالقنديل.. فأفاق وقفز نحوهم مسرعًا.. فسقط في صينية وضعت لاستقبال قطرات المطر المتساقطة..

- يا ولاد الـ..

فضحك الأولاد وكتمت فاطمة ضحكتها..

***

أمسكت نجية بطرف صينية الطعام المرفوعة فوق رأس زينب، كملقف صناعي للقطرات المتسللة من السقف إلى الفراش، وأسندت الطرف الآخر من الصينية على قائم الفراش، وفي الناحية الأخرى جلست بحر وبين يديها مصطفى الصغير مطرقة شاردة في هم جديد وصلها للتو عبر البريد الصوتي، وبجوارها زوج ابنتها حسن قد ارتدى جلبابًا قديمًا، وقد بدا مكتئبًا حزينًا لحال زينب التي انطفأ وهجها، وزاده اكتئابًا استرجاعه لمعركتهم مع سوزان والتي اضطر أن يحكيها بالصوت والصورة أمام الجمهور، وها هو قد انتهى من الفصل الأول الخاص

بجريمة صالح وسط استنكار وذهول وهمّ غطى على الجميع، فما بالهم لو حكى لهم عن الفصل الثاني!

دخل صالح فوجدهم واجمين، فأدرك أن حسن قد حكى ما جرى، فوقف عند مؤخرة الفراش لا يجد ما يقول وانضم لقافلة الصامتين.. فوجدت حلاوتهم أن الواجب يحتم عليها أن تتدخل لتهش تلك السحابة، وتعيد بالابتسامة التي زارتهم منذ قليل، فقالت مازحة:

- لكن الصراحة.. والحق يقال.. البنت قطعة قشدة.. جمالها يحل من حبل المشنقة..

أفاقت زينب على هذا الوصف الذي أثارها، وبدأت تتململ في فراشها.. واستطردت حلاوتهم متباسمة:

- أليس كذلك يا باش حكيم؟

تباسم صالح وحاول أن يناغم امرأة عمه في كلامها ويهرب من إحساسه بالذنب؛ لكونه كان سبب الفرحة في البداية ثم صار سبب الهم، فقال:

- الكذب خيبة يا امرأة عمي.. البنت أستغفر الله العظيم.. ممكن تصيد أي رجل مهما كان مستقيمًا..

تابعت بحر حوارهما، فأفسحت مكانًا ضيقًا في وجهها لشبه ابتسامة، وهي تتمنى أن يفلحا في إنقاذهم من وهدة الألم في تلك الساعات، أو على الأقل يخففان عنهم، فمدت حلاوتهم يدها من تحت البطانية وقرصت زينب:

- اسمعي أيها المسكينة.. اسمعي

تابعتهما زينب بضعف والكل يتابع زينب التي تستعد للرد قريبًا ويشجعونها على ذلك.. فاستطرد صالح:

- خاصة لو!

- انتبهي يا زينب إلى هذه الـ(لو)..

- لو كان هذا الرجل معها طوال النهار لا يفارقها..

نطقت زينب أخيرًا، وهي تستغيث بحسن:

- آه .. سألد يا حسن..

أمسك حسن بيديها والابتسامة على وشك أن تغزو وجهه من جديد، فتابع صالح استفزازها:

- وأحيانًا في سيارة واحد منفردين..

هزت حلاوتهم رأسها ومصمصت شفتيها تندب حال زينب المخدوعة في زوجها، وبحر قد قررت الابتسام من جديد، فقالت حلاوتهم:

- عيني عليك يا زينب يا طيبة..

- وأحيانًا والعياذ بالله على مقعد واحد..

تشبثت زينب بذراع أمها وصاحت:

- آآآآه.. أغيثيني يا بحر..

يا فرج الله! ابتسم الجميع، بل إن البعض ضحك، وانضمت بحر إليهم في قرار جماعي بمواجهة الحالة على أي حال، وليفعل الباشا ما يحلو له، ثم استطاعت زينب أن تخرج من حالتها بجملات متقطعة:

- وأنا دائمًا.. أسأل لنفسي.. لماذا يتمسك بهذا العمل.. الآن عرفت.. آآآه

أوشكت السحابة أن تقفز من الشباك، لكن للأسف كان حسن مضطرًّا أن يصعد خشبة المسرح ليحكي الفصل الخاص به، ويرمي عن صدره ما يثقله فهم سيعرفون آجلًا أم عاجلًا:

- اطمئني يا زينب.. لن أذهب إلى هناك ثانية..

تحولت الأنظار إلى حسن متوجسة، فاستطرد:

- هذا إن لم أذهب إلى السجن..

قالت بحر مشفقة تكذب تخمينها:

- لا تهول الأمر يا حسن.. فأنت..

أرادت أن تقول إنه ليس له علاقة بالموضوع ومقامه عند الباشا كبير، لكن حسن قاطعها:

- فعلت أسوأ مما فعله صالح!

فغر الجميع فاه.. حتى حسن الطيب الهادئ الحليم قد زاد البلة طينة، وأكد الجريمة بجريمة، ساد الوجوم مرة ثانية، ولم يبادر أحد بالفكاك ثانية، بعد فترة إطراق طويلة.. تذكر صالح شخصًا لم يره إلى الآن:

- أين عمي عبد المولى؟

(٤٢)

جلست سوزان في حجرتها الفاخرة أمام مرآتها، وقد ضمت سترة حسن إلى صدرها، تدنيها إلى أنفها تشمها، ثم تمسح بها وجهها، ثم تلف بها عنقها، ثم تضعها على كتفها تستدفئ بها، والكلبان الصغيران يدوران حولها وقد غارا من السترة، ثم نهضت سوزان من على كرسي المرآة، وخطت في الحجرة حالمة شاردة إلى الفراش، ففردت السترة أمامها ثم فردت البنطال، فبدا المنظر كأن حسن ممد على الفراش أمامها.. وقفت تتأمله وتتحسس أزرة السترة بنشوة تغمض عينيها وتفتحها كأنها في انتظار أن يتحول الخيال إلى حقيقة، لكن فجأة عاودتها صورته وهو يعنفها، فانفعلت وأخذت تضرب السترة بيدها:

- حيوان.. حيوان..

ثم توقفت، هدأت، تنهدت، ثم مسحت على السترة بكفيها في حنان، ثم ألقت بنفسها عليها تحتضنها وتبكي.

(٤٣)

جلست الجازية بجوار أبيها تستمع بإصغاء، وأحيانًا تتسلى بملاحقة عينيه الماكرتين اللتين تهربان منها، ولكنها تكشف دواخله جيدًا فهي صورة منه على الأقل في طباعها، فقال خليفة يعزز كبرياءها تمهيدًا لعرضه:

- أمامك ثلاثة عرسان يا بنت خليفة..

لم تستطع الجازية أن تخفي فخرها بالرقم الكبير، فعبثت بضفيرتها المتدلية من تحت غطاء رأسها تخفي ما تبقى لديها من خجل، واستطرد خليفة متصنعًا الحنان والحياد:

- اختاري من تشائين لن أغضبك..

بالطبع الجازية كانت قد حسمت اختيارها، والذي حسمه أبوها من قبلها، ولو كان متشككًا في اختيارها لما ترك لها حرية الاختيار، ولما كان بهذه الوداعة واللطف، فأجابت الجازية بشكل تقليدي لتعلي من ذلك الجسر الوهمي الذي يصنعه رغم أنه يعلم وهي تعلم ما يعلمه وتعلمه، فأحنت رأسها وقالت:

- ما تراه يا أبي..

فابتسم خليفة وشد على عضديها فخورًا بها، ليكمل ما تبقى من المشهد:

- عفارم عليك.. ستكونين سيدة الدوار يا جازية، وستُدخلين النوحية ثانية إلى هناك وستعيدي الجنينة.. وستكونين زوجة الوريث..

على ذكر الوريث أحست الجازية غصة في حلقها، فقد تذكرت أسوأ ما في عرسها، إنه العريس، ثم بلعت لعابها لتفتح الطريق في حلقها لما هو أشهى، وهي تقول في سرها: لأجل الورد يُسقى العلّيق..

ثم فجأة دخلت عليهما حلاوتهم، فسكتا عن الكلام المباح كأنهما على اتفاق، فاندهشت حلاوتهم لحالهما، ثم دارت حولهما في صمت تستكشف أمرهما وهي تتفرسهما، ثم قالت:

- أشعر بجريمة تدبر!

(٤٤)

جلس حبشي ويعقوب القرفصاء وسط البهو، وبينهما قصعة بها قوالح مشتعلة يستدفآن بها ويحكان أيديهما فوقها.. أنزل حبشي شاله على كتفيه، وقال وهو يكاد يبكي:

- دبر لي يا يعقوب أفندي.. لا بد أن أتزوجها بأي طريقة!

نظر له يعقوب يتأمل عينيه العاشقتين ويريده أن يتابع، فتابع:

- لا أتخيل أنها تذهب إلى غيري.. لو رأيتها لعذرتني.. إنها أجمل من بنت الباشا.. لكن هذا الأسمر النحيف سبقني إليها..

ابتسم يعقوب سعيدًا بتصاريف القدر، جالت في خاطرة لكنه أبقاها قليلًا خلف لسانه حتى تختمر، فرفع هدبة ثوبه وضرب على القصعة فزاد وهج القوالح، ثم نهض فأتى بالنارجيلة ووضعها بينهما، ثم أعد المعسل حجر النارجيلة ثم أخرج قولحة متوهجة ووضعها على النارجيلة، ثم قال مبتسمًا:

- أنت مبخت يا ابن الخولي..

تابع حبشي في اهتمام، فسحب يعقوب نفسًا عميقًا من النارجيلة:

- طلبك سيلبى الليلة..

توقف حبشي عن الاستدفاء وعن حك يديه، واقترب من يعقوب:

- أنت جاد يا يعقوب أفندي؟

هز يعقوب رأسه بثقة.. فاقترب منه حبشي:

- ماذا ستفعل؟

- سأخلي لك الجو..

ثم سحب يعقوب نفسًا من النارجيلة ونفثه إلى أعلى يزيد في إثارة حبشي:

- لكن.. ارم بياضك..

- رقبتي

- كلا احتفظ بها لنفسك.. أريد ٥٠ جنيهًا..

هرش حبشي في رأسه مترددًا، ثم قال:

- أخبرني أولًا ماذا ستفعل؟

- ما تريدني أن أفعل..

ثم أشار إلى عنقه إشارة الذبح، فادعى حبشي الدهشة وعدم الرغبة، فقال هامسًا:

- تقتله؟

فاستدرك يعقوب:

- حاشا لله.. أتراني شيخ منصر؟

فهدأ حبشي منتظرًا التوضيح، واستطرد يعقوب:

- سأكري عليه شيخ منصر..

ألقى حبشي جسده على مقعدته وألقى بظهره إلى الجدار، ليس هناك حل سوى هذا، وهو لم يأت إلا لهذا، لكنه شعر أن الأمر خطير وأكبر منه بكثير، جمع ذراعيه يستدفئ بصمته فلم يجد ما يقوله، فقد أربكته الفكرة، فأطرق قليلًا.. ويعقوب يشد أنفاسًا من النارجيلة وينظر له بمكر في انتظار تأكيد رغبته بالموافقة حتى يصير شريكًا في الجريمة.. بعد تفكير استراح حبشي للاقتراح، فعاد ليعقوب:

- سأعطيك ما تريد.. لكن من سيقتله؟

قبل أن يجيبه يعقوب انفرط حوارهما بينهما بنباح الكلبين في الخارج، فانتصبا الاثنان مذعورين كأنهما قاما بالجريمة بالفعل، وجهز يعقوب البندقية وقفز ناحية النافذة مسرعًا فواربها ببطء ليتطلع إلى من بالخارج، فرأى خلف النافذة رجلًا قصيرًا ملثمًا فعرفه من أول وهلة، فأعاد البندقية إلى مستقرها مطمئنًا، ثم التفت إلى حبشي يهنئه مبتسمًا:

- وصل البطل!

(٤٥)

انتقل النوحية سريعًا من حجرة زينب إلى حجرة عبد المولى الذي استقبل صالح مبتسمًا، وهو أقصى ما يجيد فعله الآن، وبادرت نجية تعتذر له:

- سامحنا يا أبا حسن.. أولاد حمزة ألهونا..

اقترب صالح من عمه يدقق فيه النظر، ويتفحص بريبة العرق المتصبب على وجهه رغم برودة الجو، ويتابع أنفاسه الثقيلة المترددة ذهابًا وإيابًا.. المرض لم يكن في حاجة إلى خبير، خاصة وأنه رأى من تلك الحالات الكثير.. أشار عبد المولى إليهم ليساعدوه ليتكئ، فاقترب صالح وحسن وعدلاه على الفراش.. التقط عبد المولى أنفاسه، ومد صالح كم جلبابه الفضفاض فمسح عن جبهة عمه العرق، ومد عبد المولى يده يتحسس وجه صالح، فقبل صالح يده، فقال عبد المولى بضعف:

- اقترب يا ابن حمزة.. رائحتك كرائحة أبيك..

اقترب صالح مشفقًا، فضمه عبد المولى إلى صدره وأغمض عينيه هادئًا سعيدًا، والجميع يتابعون متألمين صامتين، فقد نفد الكلام من الحجرة، فالجميع في انتظار تعليق الطبيب الذي سيشخص الداء وبالتأكيد سيطمئنهم، ويقول لهم إن الأمر بسيط، وبإذن الله سينقضي على خير، وقد يصف له علاجًا وقد يخترعه.. إنه طبيب النوحية!

صوب صالح النظر في عمه، ثم نطق أخيرًا والدموع تتحرك من مطارها للإقلاع:

- سلامتك يا عمي..

- سلامتي في سلامتكم يا نوحية..

التفت صالح لحسن، وقد صار جادًّا حازمًا:

- منذ متى وعمي على هذا الحال يا حسن؟

رمقت بحر صالح مستنكرة السؤال الذي يبدو أنه بداية تدعو للتشاؤم.. انشغل حسن بوجه صالح الذي يقول أشياء مخيفة، وقبل أن يجبه سبقته نجية:

- منذ يومين..

بلع صالح لعابه وأراد أن يسأل سؤالًا آخر لكنه استحيا، ثم لم يجد بدًّا؛ فالوقت يداهمهم، وهو الطبيب:

- هل هناك إسهال؟

استحيا جمهور المتابعين مستنكرين ممارسة صالح مهامه الجديدة بتلك الجدية والمباشرة.. فهز حسن رأسه بالإيجاب، وقال يريد من صالح أن يواصل تشخيصه:

- يسهل بشكل متصل..

أظلم وجه صالح ثم نظر إلى عمه ثم إلى حسن، ثم تابع:

- أين؟

اندهش الواقفون للسؤال، فقالت نجية بعفوية:

- أين ماذا؟

لم ينتظر صالح الإجابة، فخرج وتناول أحد المصابيح واتجه إلى الكنيف، وخرج خلفه حسن مسرعًا ليعرف ما عرفه الطبيب، مكث دقائق في الكنيف، ثم خرج ووقف على الباب لحظة يجمع شتاته، اقترب منه حسن متوجسًا:

- ماذا يا صالح؟

تتردد صالح في إخباره، لكنه لم يجد بدًّا من إعلامه:

- إنه الوباء..

لم يفهم حسن، ففسرها صالح مباشرة:

- كوليرا..

تراجع حسن للوراء كأنه يتفادى الكلمة:

- كوليرا!!

- اهدأ حتى نحسن التصرف..

كتم حسن ألمه وأرجع دموعه، وخرجت فاطمة تتنصت على ما يخفيانه، فقال حسن:

- وما العمل الآن؟

- لا بد له من مصلات من المستشفى

- سأذهب الآن..

- بل سأذهب أنا..

***

وقفت حلاوتهم مستندة بظهرها إلى باب حجرتهم، وقد بدت متنمرة على غير عادتها، بل مستعدة للقتال أمام المدعو خليفة، الذي يزيد الطينة بلة ويوحل النوحية كل يوم في وحل جديد، والآن ها هي تراه يعرض ابنته في سوق نخاسته ليبيعها مع ما باعه، فقالت محتدة:

- ماذا أصابك يا ابن النوحية؟

خليفة يحاول أن يمتص غضبه ويحافظ على انفعاله، وحلاوتهم مستطردة:

- هل هانت عليك ابنتك حتى تضعها بين هذين الكبشين؟ أنت تشعل الدار نارًا؟

جلست الجازية على بسطة طينية بجوار الفراش، لا تحرك ساكنًا، كأن الأمر لا يعنيها، تاركة مآل المعركة للأقوى، ومن جانبه اعتبر خليفة نفسه في موقف الضعف أمام حلاوتهم، ولو كان في توقيت آخر لطعنها بالسكين، ولكنه لا يريد أن يتطور الأمر ويسمعه سائر النوحية، فيرد بصوت خفيض يخرج من بين فكيه المشتبكين:

- الزمي أدبك يا حلاوتهم وإلا قسمًا بالله ثلاثة..

قاطعته بقوة:

- كفاك يا خليفة ما ضيعته..

ثم حاولت حلاوتهم أن تعود للتهدئة، قبل أن يفقد زمام غضبه وتتسع رقعة المشاهدين في وقت عصيب كهذا، فاقتربت منه تخفض صـوتها في دعوة أخيرة للتفاوض:

- والفاتحة التي قرأتها مع أخيك.. وابن عمها الذي يريدها وهي تريده..

كتم خليفة غيظه وقبل بتلك النبرة السلمية التي قد توفر عليه كثيرًا من العناء، فقال:

- الفاتحة ليست سيفًا على رقابنا.. أما هي فلم تعد تريده، وهـو لم يفاتحني في خطبتها من الأصل..

ألقت حلاوتهم نفسها بجواره على الفراش وهي تنظـر إلى عينيـه وهـو ينظر إلى لا شيء، فقالت له:

- أعلم جيدًا ما يدور في رأسك.. لكن أي عموديـة تبغيهـا مـن هذا الأحول؟

فنفث مغتاظًا متململًا مـن حـديثها، ثـم نهـض ووارب بـاب الحجـرة وصاح:

- ولد يا بشر..

جاء بشر مسرعًا..

- اركب الجمل وانتظرني عند فتحة الجنينة الغربية..

حدج بشر أباه وتسمر مكانه يريد أن يعلن العصيان هو الآخر.. فصاح فيه خليفة:

- اذهب.. ماذا تنتظر!

نفض بشر ثيابه غضبًا واستدار رغمًا عنه، ثم خرج خليفة وأغلق الباب خلفه بعنف..

دنت حلاوتهم من ابنتها التي تهرب بالنظر إلى الحائط:

- أعرف أن أباك غسل رأسك بكلامه العمودية والدوار والعز الضائع..

ثم وكزتها في كتفها قبل أن تنهض:

- فلتهنئي بأحولك أيتها الحولى!

(٤٦)

صار ابن زبيبة ثالث الثلاثة، ويعقوب رحب به سعيدًا:

- أهلا بابن الغالي..

دارت عينا ابن زبيبة في المكان تستكشفه، ثم توقفت عند حبشي الذي يبادله نظرات متوجسة، فتطوع يعقوب:

- هذا حبشي ابن الخولي.. أنسيته؟

ابتسم حبشي ليستقبل ابتسامة ابن زبيبة المتوقعة، لكن ابـن زبيبـة ظـل على تجهمه ومد يده يصافحه بقوة:

- أذكره جيدًا..

- أهلاً يا ابن عمي..

لم يسترح حبشي لابـن زبيبـة ووجهـه المخيـف، ودار بخلـده أن يعلـن انسحابه مبكرًا قبل أن يزداد تورطه، خاصة وهو يشعر مع ظهـور ابـن زبيبة، أن هناك أمرًا خفيًّا لا يعلمه، لكن طيف الجازية ركب على كتفه فأخلده إلى الأرض، فإن انصرف الآن قد لا يتم المراد، فبلع لعابه وقرر الاستمرار للنهاية.. تقدم يعقوب في بـادرة حنـان غـير متوقعـة، فنـزع الكوفية المبللة من على كتف ابن زبيبة وأعطاه كوفيته:

- أمسك يا بطل..

- تسلم يا يعقوب أفندي

تنحنح ابن زبيبة مرات يفسح المجال في حلقه للكلام، وأيضًـا عسـى أن ينتبه يعقوب لخصوصية اللقاء، فإما يصرف الغريب أو أن يعطيه الأمانة وينصرف إلى غرضه، لكن يعقوب ظل يحك يده على النار، فقـال ابـن زبيبة هامسًا:

- ألم يخبرك الـ

فقطع عليه يعقوب الجملة مبتسمًا ابتسامته الباهتة لا يريد لحبشـي أن يعلم كل الخيوط:

- عندي علم بكل شيء لا تقلق..

ثم دفع يعقوب قصعة النار قريبًا من زبيبة:

- استدفئ يا بطل.. أمامك ليلة باردة

استنكر ابن زبيبة ذلك التلميح أمام الغريب، فتنحنح وحدجه ينبهه، فضحك يعقوب مقهقهًا، وضرب على كتف حبشي المتوتر:

- لا تقلق.. حبشي شريكك الليلة..

حبس حبشي أنفاسه في ذيل ذلك الوصف، ونظر ليعقوب مستنكرًا، لكن يعقوب استمر في توريطه:

- ابن حمزة غريمه أيضًا..

بهذا أغلق يعقوب طرق الهروب أمام حبشي، وصار حتمًا عليه أن يقبل باللقب الجديد مع السيد ابن زبيبة رغم أنه أدرك أن الأمر كان سيقضى دون تدخله، ومن جانبه استراح ابن زبيبة لهذا الحال، فمد يده ثانية وصافح حبشي بحماس كأنه يهنئه:

- النوحية الأغبياء أكثروا أعداءهم..

استسلم حبشي ليد ابن زبيبة القوية، فهز عنقه وتباسم إرضاء له، ثم نزع ابن زبيبة يده ومدها أعلى القصعة ليحكها على النار، ثم همس ليعقوب:

- أين الأمانة يا يعقوب أفندي!

- تحت أمرك..

ثم نهض يعقوب ناحية صندوق ملابسه وأخرج بندقية قديمة، وأشار بها لابن زبيبة من مكانه، فانتصب ابن زبيبة يستقبله كأنه حاز جائزة، وتابعهما حبشي وهو يبلع لعابه خائفًا مترددًا، ومدها يعقوب لابن زبيبة:

- نقاوة عيني بندقية (أم شوكة) عثمانلي معتبرة..

تناول ابن زبيبة البندقية سعيدًا، فقال يعقوب:

- لكن به عيب واحد.. بيت النار لا يحمل إلا طلقة وحدة.. إما تصيب وإما تصيب!

- بالطبع ستصيب..

فضرب يعقوب على كتفه مشجعًا:

- تسلم الأيدي التي لا تفرط في ثأرها..

انتشى ابن زبيبة على ذكر الثأر ورفع صدره معتبرًا نفسه منتقمًا وليس مأجورًا.. وحبشي يتابع في صمت، ثم دخل يعقوب في مشهد تمثيلي ماكر على طريقة النساء:

- رحم الله زبيبة كان أكثر من أخ.. منه لله حمزة النوحي.. ظل يجلده حتى صفى دمه أمام أهل العزبة.. بلا ذنب ولا جريرة..

آتي كلام يعقوب أكله بسهولة، فصب الزيت على نار ابن زبيبة الذي ضغط على فكيه بغضب:

- سأقطع دابره..

فقال يعقوب يهدئه ويشاركه في وضع الخطة:

- هذه الأمور تحتاج إلى التكتكة والهداوة.. حبة حبة.. لا تندفع حتى لا تكون أنت فريستهم..

شعر حبشي أنه غر وسطهما وهو يتابع هذا الحوار الذي لا يفهم إلا أن غريمه سيقتل، فقال يشاركهما على وجل بما استطاع حتى يظهر في الصورة بينهما:

- ومتى ستنفذ؟

فأجاب يعقوب نيابة عن ابن زبيبة:

- الليلة..

ثم وضع يده على كتف ابن زبيبة ودار حوله:

- الليلة شتاء.. والقمر غائب خلف المزن.. سيترصد لابن حمزة من أي جهة من الدار أو إذا أراد فليقفز بينهم كالسبع، ويخلص عليه أمامهم كما فعل حمزة النوحي في أبيه..

ثم يقلب يعقوب سحنته بشكل مفاجئ كالحرباء:

- مع أنني أقول.. أنتم أولاد جيرة وعشرة سنوات.. والولد لا يؤخذ بذنب أبيه، ويا بخت من سامح!

نظر حبشي إلى يعقوب دهشًا لتلك النصيحة، بل أوشك هو أن يصدقها ويرق لها، لكن قبل أن يقع تأثير الكلام على ابن زبيبة، بل قبل أن يصل إلى آذانه كاملًا، قلب يعقوب إلى سحنته الأولى كما تعود:

- أعلم أن رأسك حجر.. لن تفرط في ثأرك أبدًا..

شرد حبشي في حاله وفكر كيف يهرب من تلك الجريمة ما دام لها من يدبرها، ثم أفاق على ربتة يعقوب:

- هيا معه يا حبشي.. الزمه كظله.. حتى يعود إلى هنا بسلام..

قام حبشي مرتبكًا، وفكر أن يعلن العصيان، فقال هامسًا:

- هو ليس في حاجة إليّ..
- لكنك في حاجة إليه..

ثم أردف بطريقة لها مغزى:

- فإن لم يتم المراد لن يتم المراد.. والأمر لا يسلم قد يحتاجك.. ومداخل العزبة كثيرة وقد يكون نسيها..

قطع حديثهم فجأة صوت الكلاب تنبح بالخارج، فانتفضوا مذعورين، فصاح حبشي الذي طفح به كيل الرعب:

- يا يعقوب حرام عليك.. قطعت خلفي أنت وكلابك..

ثم اتجه يعقوب نحو النافذة مسرعًا، ففتحها ببطء وحبشي وابن زبيبة ينتظران الخبر، لكنه لا يجد أحدًا، فيخرج رأسه من النافذة يفتش في المكان لكن لا يعثر على أحد، فيصيح خائفًا:

- من؟ من؟ من؟

(٤٧)

التف الأطفال حول الطبلية في المنضرة يـأكلون بزهـد، وهـم يتـابعون بقلق حالة الطوارئ في حجرات الدار وفي الفناء، ومن خلفهم جلست فاطمة مستندة إلى الأريكة، تدفع دموعها المنهمرة، وبجوارها حسن قـد جلس شاردًا علـى الأرض ملقيًـا برأسـه إلى الأريكـة يحاصـر همومـه وتحاصره.

جاءت هند من عند الباب الخارجي مسرعة، وبين يـديها هديـة لـزوج أختها، إنها صرة حريرية تفوح منها رائحة السرايا الـتي يعرفهـا حسـن جيدًا، التفت حسن دهشًا مع هجوم الرائحة، فوضعت هند الصرة بين يديه، وهي تقول هامسة مستشعرة أن الأمر سري:

- سفرجي الباشا ترك لك هذه..

تلقف حسن الصرة مندهشًا، ثم أعطت له هند ورقة بريدية جاءت مع الصرة:

- وهذه..

فتح حسن الصرة بسرعة فوجد بزة السواقة خاصته، فتـنفس الصـعداء وأدرك أنها لم تخبر الباشا بما جرى، فتسربت إلى وجهه ابتسـامة عفويـة ثم سحبها وعاد لحاله، ثم فتح الورقة بلهفة، إنه خط سوزان:

(في انتظارك غدًا كي ستكمل تعليمي القيادة وتحضر حفلتي)

خفق قلبه خفقة، ثم استنكر ذلك الخفقان ونظر حوله يطمئن أنه غير مراقب، فلم يجد سوى فاطمة المشغولة بحالها.. تنهد حسن وأسند ظهره إلى الأريكة في استرخاء فقد انحلت إحدى العقد.

(٤٨)

تحرك فيصل بين أعواد الفول متربصًا على بعد خطوات من دار يعقوب، لا يدري ماذا يفعل؟ ومن أين يبدأ؟ ومن أين يدخل؟ فإن انتصب واقترب من الأمام فالكلاب ستفضحه، وإن ذهب من الخلف فليس هناك مدخل.. وماذا لو واجهه يعقوب مالك البندقية وهو لا يحمل سوى سكين، أوشك فيصل أن يتراجع عن فكرته المتهورة التي ستفشل لا محالة.

لكن قبل أن يبادر بالانصراف كان يعقوب قد فتح باب داره ووقف أمامها يودع ضيفين غريبين، والكلبان بجواره يلقيان التحية ويبديا الأدب في وجوده، ويعقوب يصوب نظره يمينًا ويسارًا يراقب سير الأمن حول الدار كأنه يشعر بوجود فيصل.. انتهى يعقوب من توجيههما، استطاع فيصل أن يميز حبشي ابن الخولي بسهولة، لكنه لم يتعرف إلى ذلك القصير..

استدار الاثنان وانطلقا من أمام الدار إلى جسر عريض وسط غيطان الفول، متجهين نحو المعدية، توقف يعقوب قليلًا يرقبهما، ثم شعر

بالوحشة والخوف، وخشي أن يكون مرصدًا، فاستدار بسرعة ودلف إلى الدار.

مر ابن زبيبة وحبشي بجوار فيصل مسرعين إلى عزبة نوح، وانكفأ فيصل بين أعواد الفول يخبئ نفسه ويتابعهما ويقلب في رأسه كل التخمينات والتحليلات، حتى اختفيا.

(٤٩)

ازدادت حالة عبد المولى سوءًا، وصار يحرك فكيه بصعوبة فتحًا وغلقًا، يلتقط الهواء كأنه في نزعه الأخير، دنا صالح منه يسقيه ماء بملح، وقد أخرج جميع من بالحجرة عدا زوجته نجية التي جلست في ركن قريب:

- كيف تتركنا في هذه الساعة يا صالح؟

انتهى صالح من سقي عمه، ثم جفف فمه وأراح جزعه على الفراش:

- لن أطيل يا امرأة عمي.. سآتي بالدواء وأعود..

ثم سمع أمه تصيح من حجرة زينب مستغيثة:

- صالح!

فانتفض صالح من مكانه وأسرع إلى حجرة زينب.

(٥٠)

قرر فيصل أن يتوجه ناحية دار يعقوب من الخلف، اقترب من الحظيرة خطوات يقدم رجلًا ويؤخر أخرى، دار حول الدار نصف دورة بعيـدًا عن أنوف الكلاب، فرأى إحدى النوافذ بها شق رأسي يتيح له إن أراد أن يراقب من بالداخل، فدنا وألصـق وجهـه بالنافـذة يتلصـص علـى يعقوب، لكن فجأة نبحت الكلاب وقد شمت رائحته، فانتفض فيصل وارتبك وارتد إلى الوراء هاربًا، فتعثر في جلبابه فسقط ثم قام متخبطًا.. فتح يعقوب النافذة، فرآه فصاح:

- قف مكانك..

ثم صوب البندقية:

- قف مكانك.. قد عرفتك..

لكن فيصل لم يتوقف وأسرع يخترق حقـل الفـول ليهـرب مـن أمامـه، فأطلق يعقوب الرصاص.

(٥١)

جلس صالح عند رأس أخته ينضح في وجهها الماء بلطف، يحاول إنعاشها من شبه إغماءتها، وبحر وقفت في ظهره مشفقة تهمهم بدعوات، وحسن أمسك بأطراف قدميها يضغط على أصابعها، وهو يهمس لها كأنه يوقظها من النوم:

- زينب.. زينب..

تململت زينب وتأوهت وعادت لنزعها وقد أفاقت قليلًا، وحسن مستمر في إلحاحه:

- زينب.. زينب..

أفاقت أخيرًا، فقالت في ضيق:

- ماذا تريد من زفتة؟

تنفست بحر الصعداء:

- والحل يا صالح؟

اقترب صالح من زينب يحفزها:

- الحل في يدك يا زينب.. بسكونك هذا، الولد سيفضل البقاء بالداخل.. كلها ساعة وينحل الرحم.. أفيقي واصرخي واحذقي.. لا تستسلمي..

هزت زينب رأسها موافقة.. ثم استدار صالح لأمه..

- سأذهب الآن..

استدار صالح منصرفًا، وهو يلف على رأسه الشال، ومن خلفه خرج حسن تائهًا، ثم توقف صالح أمام باب الحجرة وهمس له:

- حالة زينب سيئة.. أرسل بشر إلى القابلة أو اذهب أنت..

(٥٢)

وصل حبشي وابن زبيبة قريبًا من دار النوحية، يتلفتان حولهما يرقبان المكان، وقد بدت العزبة خالية من أهلها فقد حبسهم البرد والمطر والعمل الشاق طيلة النهار في دورهم.. وقفا بعيدًا خلف إحدى الشجيرات وقد أخفاهما الظلام والشجر المتناثر في محيط دار النوحية، مرت لحظات، فهمس حبشي بصوت مرتبك:

- هو لن يخرج لك كي تقتله..

أشار ابن زبيبة لحبشي بالصمت، وبلع حبشي جملته عندما رأيا بشر خارجًا من بالجمل من جانب الدار ناحية الحظيرة، فانتبها يراقبان في صمت، واتخذ ابن زبيبة وضع استعداد لعل المرصود يظهر، لكن خرج بشر ولم يخرج أحد خلفه.. أناخ الجمل وصعد عليه وانصرف في هدوء ليلحق بأبيه الذي سبقه.

أطرق ابن زبيبة يفكر في الخطوة القادمة وحبشي ينظر إليه يستكشف خطته، ثم قفز ابن زبيبة فجأة نحو دار النوحية، ثم توقف أسفل إحدى النوافذ، ورفع عنقه يحاول أن يتابع ما يجري من بين شقوق نافذة تطل على الفناء، فرأى صالح واقفًا يجهز نفسه للخروج، فالتصق ابن زبيبة أكثر يتابع.

***

خرجت فاطمة من حجرة عبد المولى بين يديها لحاف متجهة به إلى المنضرة؛ حيث جمعوا الأطفالليناموا فيها، التفت إليها صالح:

- فاطمة..

استدارت فاطمة المهمومة، ودنت منه ملبية وقد علا وجهها الهم، ولو كان الزمان غير الزمان لكانت أبدت ما استطاعت من لهفتها، فدنا منها، ووقف قليلًا أمامها يتطلع إلى وجهها، ترجمت نظراته على الفور، إنها كلام مخنوق محبوس خلف قضبان زمانهم ومكانهم والكرب الذي ضرب مخالبهم في دارهم، فهمس أخيرًا بجملة يتيمة:

- أين كنتِ منذ زمن؟

ثم قطع كلامهما، بل قطع صمتهما، حسن الذي خرج يسحب خلفه الفرس:

- الفرس يا صالح..

التفت صالح وفاطمة للفرس، وحسن يوصيه:

- انتبه جيدًا إنها بلا حدوة.. اسلك طريق الجنينة إنه آمن وأقصر ولم يتأثر بالمطر..

اقترب صالح من الفرس، ووقف قليلًا يتطلع وقد نسخ نظراته من فاطمة إلى الفرس، اقترب منها أكثر، مسح عنقها بكفه ثم جمع شعرها في قبضته، ثم أخذ يقبلها، راقبت فاطمة صالح تقدر حالته، أمسح صالح لجام الفرس واستعد للانصراف، خرجت بحر من حجرة زينب تستوقفه:

- صالح!

استدار لها فأقبلت عليه تقبله وتضمه إلى صدرها، وفاطمة تتمنى لو استطاعت أن تفعل هي الأخرى، قالت بحر وعبرة تخنقها:

- لم أشبع منك يا ولدي!

فابتسم صالح واندهش لحالها، ثم انحنى على يدها يقبلها:

- سأجلس معك الشتاء بطوله..

***

ارتبك ابن زبيبة الذي يتابعهم من الخارج، لم يدر من أين سيخرج صالح بالفرس، ولن يستطيع أن ينتظر مكانه حتى يخرج فسيراه بسهولة.. ابتعد عن النافذة خطوة وهرش رأسه يفكر، ثم هداه تخمينه أنه بالتأكيد سيخرج من الباب الجانبي كما خرج بشر بالجمل، فأشار ابن زبيبة من مكانه إلى حبشي يخبره بتعديل الخطة وتغيير في مكان الترقب، فأشار له بيده أن يبقى في مكانه وهو سيذهب إلى باب الحظيرة، لم يفهم حبشي إشارته حتى رآه يتحرك بالفعل إلى جانب الدار، فوجد حبشي نفسه فجأة وحيدًا، فانثنى يتخفى خلف الشجرة خائفًا وكأنه هو المرصود..

***

دخلت فاطمة إلى المنضرة وألقت بالغطاء على الأطفال الذين أصابهم ما أصاب النوحية من وجوم فجمدوا في مكانهم يتسمعون للأخبار المتناثرة حولهم، فهناك إشاعات تقول إن الكوليرا غزت دار النوحية وأطلقت سمها في جسد عبد المولى، وإشاعات تقول إن زينب تصارع

مولودها إما أن تقتله أو يقتلها، وإشاعات أخرى تقول إن بشر تشاجر مع والده من أجل الجمل وقد يعلن العصيان..

لفتت النافذة المواربة انتباه فاطمة، فتقدمت إليها لتغلقها، ثم تذكرت صالح الذي غزا قلبها من جديد، فمدت عنقها من النافذة ترقبه، رأته يودع حسن أمام الباب، ثم قفز بالفرس كأمهر خيال، ثم انطلق إلى خارج العزبة مسرعًا..

***

ارتبك حبشي عندما رأى صالح قد خالف تخمين ابن زبيبة، تخبط وفكر وهرش ولم يدر ما دوره المنوط به بعد هذا التغيير المفاجئ.. مر حسن من أمامه متجهًا إلى جوف العزبة نحو دار القابلة، لوح حبشي إلى ابن زبيبة الرابض بعيدًا ناحية الحظيرة، انتبه ابن زبيبة فأسرع نحوه، وتحرك حبشي من خلف الشجرة يقابله هامسًا:

- خرج من هنا..

***

انتبهت فاطمة لهما يجريان ناحية صالح، أحدهما قصير ملثم يحمل بندقية تظهر مقدمتها من تحت العباءة، ميزت الثاني بسهولة رغم الظلام، إنه حبشي ابن الخولي.. لم تستوعب الأمر لكنها أوجست خيفة، فخرجت مسرعة إلى الفناء.. وقفت قليلًا تفكر.. ماذا تفعل؟ ومن تخبر؟ فكرت أن تكتم ذلك التخمين حتى لا تثير ذعر من بقي في الدار، لكنها خشيت على صالح، هو بالتأكيد مرصود.. لكن من

يرصده؟ فهداها تفكيرها إلى إخبار حلاوتهم، فدفعت باب حجرتها ثم أغلقته خلفها، انتبهت لها حلاوتهم مذعورة فرفعت يديها عن طست الملابس الصغير التي تغسل فيه ملابس عبد المولى، وانتصبت الجازية تستقبل فاطمة التي أتت بشيء مريب، قالت فاطمة تستغيث:

- أدركيني يا عمة!

(٥٣)

اتجه صالح بالفرس نحو طريق الجنينة، أبطأ في البداية يجس سطح الطريق وسط العزبة، ثم وكز الفرس فانطلق يدق بحوافره صمت العزبة الهادئة الهاربة، مر على رجلين لم ينتبه لهما ولكنهما انتبها، توقفا والتفتا نحوه يستفسران، قال أحدهما دهشًا:

- إنها فرس حمزة؟

ثم صاح:

- والفارس حمزة..

وكزه عبد المجيد في كتفه:

- حمزة في السجن أيها الأبله.. إنه الخولي سنوسي..

توقف أبو السعد وصاح:

- أقسم بأيمان الله إنه حمزة.. إنك أحول!

- احترم نفسك يا أبو السعد!

- أنا محترم رغم أنفك يا عبد المجيد..

وكادا يشتبكان، لكن قطع شجارهما رجلان شبه ملثمين يهرولان من بعيد ناحية الجنينة.. فنظرا إلى بعضهما متوجسين ثم انصرفا خائفين..

(٥٤)

جلس فيصل بعيدًا ساكنًا على إحدى القنوات يرقب دار يعقوب من بعيد، ثم يمسك بحجرة ويلقيها ناحيتها ويهمهم بالشتائم، ثم يهدأ ويطرق برأسه إلى الأرض، يهمهم بالاعتذار، إنه يريد أن ينتقم من ذلك المغتصب لكن الواقع يمنعه، علا صدره غضبًا فدس يده في صديريته وأخرج السكين وصوبها إلى الظلام ناقمًا، وهو يسب نفسه:

- جبان!

ثم صمت برهة ثم نهض منسحبًا مطأطئًا عائدًا إلى عزبة نوح، وقد أجل بغيته إلى أجل غير مسمى، لكن فجأة أفاق على ظل يخرج متلفتًا خائفًا من كوخ الشيخ سلامة، جثا فيصل مكانه يتوارى ليراقب من يكون، لم يتبينه في الظلام.. فكر أن يقفز نحوه يمسك به لكنه خشي على نفسه فهو لا يملك سلاحًا حتى السكين ألقى بها.. قبل أن يغير فيصل قراره كان الظل قد ابتعد مسرعًا وغرق وسط الغيطان والظلام، فقفز فيصل مذعورًا ناحية الكوخ.

(٥٥)

وصل صالح ممشى جنينة المـوالح، اقتحمهـا غـير منتبـه، لكـن العـبير والليل والسكون والتاريخ ينبهون خلاياه.. آه.. شد لجام الفرس يبطئه، انصاع له الفرس بليونة فقد أصابه ما أصاب فارسه، دار صالح حـول نفسه في المكان يملأ عينيه من المشهد الجديد القـديم، إنـه الآن يتـبختر على خشبة مسرحه القديم، دلف بين الأشـجار كالمسـحور، النبـات لم يلحقه ما لحق النوحيـة، الأشـجار لا تـزال مصـطفة محتضـنة تتصـافح بأطرافها فتأوي القريب وتخيف الغريب.. روائح الـورق النـدي تمسـح على قلبه بحنان ثم تطرق باب المجد القديم، يستسـلم صـالح ويغمـض عينيه ويتسع صدره ليقول هل من مزيد، يرى الدوار والخفـر والعمـار والكبرياء، ويسمع ضحكات أمه ثـم تنبهـه صـيحات حمـزة الرعديـة، دارت الفرس معه حيث دار، أحضر كتاب التاريخ، إنه يريـد أن يقفـز إلى الوراء فهل تستطيع الفرس، صهلت الفرس وكأن خلاياها موصولة بخلاياه، فأفاق على الصهيل، فانتبـه إلى موقعـه الجديـد، فتنهـد متبئسًـا على ما فات، ثم وكز الفرس بساقه لتستكمل الطريق، عصـته الفـرس لحظة فهي تود البقاء بين الشجر السـعيد، ثـم لم تجـد بـدًّا مـن الطاعـة فامتثلت وانطلقت في طريقها.

وبعده بمسافة بعيدة دلف ابن زبيبة إلى الجنينة يحاول أن يدركـه قبـل أن يتوه منه وسط الظلام في فتتبخر الصـفقتان ويتبخـر معهمـا مجـد الثـأر الذي يلبسه أحيانًا، ومن خلفه يجري حبشي متعبًا، يتوقف بـين خطـوة

وأخرى على طريقة يعقوب، يتلفت حوله ليتأكد أن أحدًا لا يراهمـا.. ثم يكمل الطريق.

(٥٦)

دلف فيصل إلى الكوخ مسرعًا، فوجد الشيخ سلامة يكتم دمه الذي ينزف بغزارة من جبهته التي شجت، ويضغط بجلبابه ليوقف النزيف، جثا فيصل سريعًا على ركتبه:

- سلامتك يا شيخ سلامة..

مزق فيصل ثيابه، ثم مزق قطعة منه ودنا ليلفها على رأس رأس سلامة:

- ألم أنبهك يا شيخ..
- إنه جرح بسيط..
- أرادوا أن يقتلوك..
- إنها قرصة أذن.. القتل في المرة القادمة

سكت سلامة، حتى ينتهي فيصل من عقد الرباط على رأسه.. ثم ألقى سؤاله المكون من كلمة:

- وماذا عن مهمتك؟

بلع فيصل لعابه وتوقف عن مهمته برهة يفكر في إجابة لا تخل بشجاعته، لكن أراحه سلامة من عناء الهروب وقال:

- لم تستطع..

استند فيصل إلى جدار الكوخ شاردًا لا يجد كلامًا، فقال سلامة يواسيه ويخفف من ثقل الإجابة:

- خيرًا فعلت.. لعله شرّ منعك الله منعه..

فلوح فيصل غاضبًا من نفسه:

- بل الشيطان منعني يا شيخ.. إنه يستحق الحرق..

سكت سلامة يريده أن يستطرد دون أن يؤيده أو يعارضه كعادته، فأردف فيصل يدافع عن نفسه:

- لكن كيف أواجه البندقية والكلاب المسعورة بسكين؟

سكت فيصل برهة يريد أن يسمع تأييدًا أو معارضة من الشيخ، لكن سلامة لم يشأ أن يشاركه كأنه يتعمد بلبلته حتى يصل إلى مرساه دون مساعدة، فأردف فيصل:

- لو كان معي سلاح كنت..

قاطعه سلامة بهدوء، وقال يعظه بموعظة ذات حدين كعادته، تاركًا له تفسيرها كما يريد:

- معك حق يا فيصل.. فهذا بحسب ما قرأناه في السياسة والمنطق وبحسب ما قاله ابني عبود فهو كلام سديد.. فالبندقية حتمًا تنتصر على السكين.. لكن قرأنا أيضًا في التاريخ أن حمزة النوحي غزا السرايا واقتحم بوابتها وأرهب حراسها وسحب زبيبة من قفاه.. بكرباج!

ثم سكت الشيخ برهة وفيصل يتابع وقد أوشك أن يستوعب، فاستطرد سلامة:

- العبرة بحامل السلاح!

أسند فيصل ظهره ثانية إلى جدار الكوخ فاسترخى لحظات شاردًا، ثم انتصب فجأة بقرار:

- أعرني سكينك يا شيخ..

(٥٧)

وصل صالح إلى منتصف الممشى تقريبًا، لفته ممشى الشيخ سلامة عن يمينه، جذب لجام الفرس، لم يكن يستطيع أن يمر عليه مرور الكرام، توقف قبالة الممشى قليلًا يلقي التحية على صاحبه، تذكر الشيخ العصي وابنه العاصي ثم فعلته التي حالت بينهما.. ضغط على فكيه يؤنب نفسه ويعتر لعمه، فأراد أن يكز نفسه معاقبًا فوكز الفرس وانطلق يستكمل الطريق.

(٥٨)

وقف بشر قريبًا من الجنينة في انتظار والده الذي تأخر، استند بشر إلى بطن الجمل يستدفئ بها ويحتمي من قطرات المطر المتقطعة، ويختم عهده به قد تكون آخر اللقاءات، حدثته نفسه أن يسحبه ثانية ويعود إلى الدار

ويقبل قدم عمة بحر كي تأخذ الجمل من أبيه عنوة فهي تقدر على ذلك، ثم أزعجه ظهور أبيه خافًّا من بعيد:

- هيا يا بشر..

توقف بشر في مكانه لا يريد التحرك، فالتفت له خليفة صائحًا:

- هيا يا بشر.. الخولي في انتظارنا..

لم يتمالك بشر نفسه، فأجهش بالبكاء:

- يا أبي لا تبعه..

تحامل خليفة فلم يشأ أن يفقد أعصابه في تلك اللحظات.. ثم أردف بشر:

- أنحن مفلسون يا أبي كي نبيع جملنا!

تضايق خليفة من جملة بشر، لكنه أمسك لجام غيظه، ثم وجدها وسيلة جيدة لتهدئة ولده الوحيد، فاقترب منه ووضع يده على ظهره، ثم قال بلهجة مثيرة للشفقة شاذة في قاموسه:

- نعم يا بشر.. نحن في أمس الحاجة إلى المال.. وأعدك عندما يفتح الله علينا سنعيده إلى الدار.. هيا امسح دموعك لا تكن مثل النساء..

مسح بشر دموعه بكم جلبابه وسار مع أبيه مضطرًا ودخل إلى الجنينة، فهو يعلم أن موقفه لن يغير شيئًا..

سارا على الممشى قليلًا، ثم فجأة أرعدت السماء تنـذر بمطـر شـديد.. خف خليفة بالجمل حتى يصل إلى مكان اللقاء ويسلم الجمل ويتسـلم المال قبل أن يدركهما المطر.

***

وقف ابن زبيبة وحبشي يلتقطان أنفاسهما قريبًا من مستشفى إيتاي التي دخلها صالح لتوه، تلفت ابن زبيبة خلفـه يستكشـف المكـان، فوجـده مكشوفًا لافتًا للانتباه ولن يستطيع أن يفعل شيئًا إذا خرج صالح أمامه في هذه الأضواء، فاستدار زبيبة، وأشار إلى حبشي دون أن يستشيره:

- هيا بنا سننتظره في الجنينة ونقطع عليه الطريق..
- قد لا يعود من طريق الجنينة..
- هو ليس بغبائك

صعق حبشي من تطاول ابن زبيبة عليه، فحدجه بنظرة ناريـة، لكـن لم ينتبه لغضبه أو رضاه، بل انطلق حيث أراد.. تسمر حبشي قليلًـا يبلـع الإهانة التي لم يردها وهو يهمس لنفسه:

- سامح الله تلك الليلة السوداء التي أحوجتني لهذا النذل..

ثم انطلق خلفه مغلوبًا على أمره.

(٥٩)

في طريقه المعتاد من الكنيف إلى الحجرة، ألقى عبد المولى بذراعيه على كتفي بحر وحلاوتهم، وهو يجر قدميه بصعوبة كأنه مصاب حرب، وبحر وحلاوتهم تدفعاه بصعوبة إلى الأمام ونجية من خلفهما ترفع لهما السراج، وهي تهمهم في ضيق:

- أين ذهب النوحية؟

ثم فجأة سقط عبد المولى على الأرض مغشيًّا عليه.

(٦٠)

قوس خليفة راحتيه حول فمه ينادي الخولي الغائب بصوته الجهور، عساه ذهب خطأ إلى مكان آخر، فالجنينة كلها مسالك:

- يا سنوسي.. يا سنوسي..

ثم تحرك إلى الأمام خطوات، ثم كرر حانقًا:

- يا خولي الزفت..

لكن لم يجبه أحد فضرب على فخذه براحته وسكت مغتاظًا، وهو ينظر إلى بشر الذي يدعو الله في سره أن يهلك أباه أو يهلك الشاري حتى لا تتم البيعة العار..

***

أسرع حبشي وابن زبيبة وسط الجنينة؛ كي يـدركا مكانًـا مناسـبًا علـى الممشى قبل عودة صالح، الذي يملك وسيلة أسرع منهما بكـثير، بـل ويجيدها أيضًا.. وصلا إلى شجرة برتقال ضخمة مدت بعـض فروعهـا في ثلث الممشى، هنا سيضطر أن يبطئ الفارس ليمر بسلام بعيـدًا عـن الشـوك، هنـا سـتكون الفرصـة سـانحة للتصـويب بالطلقـة اليتيمـة.. استحسن ابن زبيبة المكان، فقفز خلف الشجرة وانثنـى يسـوى براحتـه المكان من تحته، ثم جلس جاثيًا على ركبته يجهز البندقيـة في الانتظـار، ومن خلفه جثا حبشي يهمهم أن تمـر تلـك اللحظـات بسـلام، ويحـل الشراكة مع هذا المجرم الأثيم.

(٦١)

أسرعت فاطمة والجازية وسط العزبة خلف حسن ليدركاه عند دار القابلة ويخبراه كما أوصتهما حلاوتهم، وقبل أن يصلا هناك، ظهر أمامهما حسن عائدًا بدونها.. أُخذ حسن لما رآهما، فأسرع نحوهما فزعًا، وقد أيقن أن مكروهًا أصاب أباه أو زوجته.

***

وقف صالح لحظات مترددًا بين العـودة مـن الطريـق الرئيسـي أو مـن ممشى الجنينة كما جاء، لكنه فضل العودة من الممشـى لكونـه مختصـرًا، فقد يسعفه الحظ ويدرك عمه المريض قبل الهلاك..

***

كادت الأرض تميد من تحت حسن عندما وصفت له فاطمة المشهد بأشخاصه، فقد أدرك سريعًا أن القصير هو ابن زبيبة، وأنه بالفعل يرصد صالح، ولا تفسير غير ذلك.. عصر جبهته يفكر ماذا يفعل؟ إلى أين يتجه؟ وفاطمة تقف أمامه تكاد يغشى عليها من القلق..

***

ألقى ابن زبيبة وحبشي أذنيهما يتنصتان لدبدبات الفرس.. بعد قليل.. إنه يقترب، وكز حبشي ابن زبيبة كي يستعد وقلبهما ينتفض، تغاضى عن بغضه له، وقال يشجعه مضطرًّا على طريقة يعقوب:

- هيا أيها البطل!

تحرك ابن زبيبة ليأخذ وضع الاستعداد، فبرز برأسه من خلف الجزء المائل للشجرة، وصوب البندقية جيدًا.. ثم همس حبشي:

- لا تنس إنها طلقة واحدة..

- هسس!

سكت حبشي مضطرًّا وهو يسبه في سره وخفف عنه أنه بعد لحظات ستفرغ لها جميلة الجميلات.. ابن زبيبة يتنفس بصعوبة ودقات قلبه تسابق دبدبات الفرس الذي دنا، جاءت اللحظة المناسبة، اعتدل ابن زبيبة وصوب بندقيته، تيقن من الزاوية، ثم أطلق الرصاصة باحتراف، فأصابت في مقتل وسقط الفارس صريعًا.

(٦٢)

انتفضت زينب صارخة كأن الرصاصة أصابتها، وضربت بحر على صدرها فزعة، ثم نزلت من على الفراش تدور حول نفسها، وهي تتمتم مذعورة:

- استر يا رب! استر يا رب!

***

تجمدت حلاوتهم مكانها وسط البهو كأنها داست على لغم، لحظات ولم تتمالك أعصابها فسقط طست الملابس من بين يديها وتناثرت الملابس في الفناء، ثم أمسكت حلاوتهم برأسها واستندت بيديها إلى الجدار، ثم ألقت بنفسها إلى الأرض وقد خمنت ما جرى..

(٦٣)

أطل يعقوب من النافذة سعيدًا وابتسامة عريضة على وجهه:

- يسلم زندك يا بن زبيبة..

ثم مقهقهًا:

- ترجع لنا بالسلامة يا حمزة العفش..

***

خرج ابن زبيبة وحبشي مسرعين من الجنينة يتخبطان في شجر البرتقال ولا يستطيعان أن يتفاديا الأشواك في ذلك الظلام الدامس.. وصلا إلى ممشى سلامة فانحنيا فيه متجهين إلى الطريق الرئيسي ليتخطوا المعدية إلى

بيت يعقوب، خرجا من فتحة السور، فسمعا صوتًا في الناحية الأخرى من المعدية يقترب، تواريا بجوار فتحة السور يتخفيان من القادم، تلصصا من خلف السور يتابعان.. رأيا جوادًا يمر من على المعدية مقبلًا من الناحية الأخرى.. دققوا النظر منتبهين.. إنه صالح قد أردف عمه سلامة خلفه.. تخشبا مكانهما لم يطرفا.. وقفا لحظات جامدين من هول الصدمة.. مر صالح مسرعًا من أمامهما.. نظر حبشي مصعوقًا لابن زبيبة، يسأله دون أن ينطق: من قتلت أيها الأحمق؟

***

وقف خليفة وبشر عند جثة الخولي يترحمان ويقرآن الفاتحة، وقد انضم إليهما حسن لاهثًا، ووقفت فاطمة والجازية بعيدًا تبكيان، وعلى بعد خطوات منهم وقف حصان الخولي يمد أشفاره ويأكل من البرتقال الذي أدمنه.

(٦٤)

دفع صالح باب الدار وولج يسحب الفرس بعمه، توقف ينظر حوله في الفناء، استنكر ذلك الصمت الذي خيم على المكان، ثم مد يده للشيخ سلامة وأنزله، فقال سلامة:

- أين ذهب أهل الدار؟

ثم قطع صمتهما صوت الوليد يصرخ من حجرة زينب.. فأسرع صالح ناحية الحجرة سعيدًا ودفع الباب متلفهًا، التفتت له بحر باسمة

فهي صاحبة الإنجاز، ومن خلفها انتبهت حلاوتهم التي لم تصدق عينيها، فأطلقت زغرودتها فرحة بالوليدين.

***

تراجع عبود عن قراره مؤقتًا، لقد حن إلى أبيه ولن يستطيع الابتعاد دون أن ينال بركاته ورضاه، لكن حتمًا سيبتعد، تقدم بين الغيطان يخطو على وجل، يحبس قلبه خلف قضبانه خوفًا عليه من الحنين مرة أخرى، لكن على حين غفلة من منطقه سعت إليه النسمة الباردة تحوم حوله وتدغدغ حواسه وتعاتبه على الجفوة والبعاد.. أغمض عينيه في البداية ليحكم خطة الهرب، لكن غازلته نسمة أخرى بنفسه العتاب، فهز رأسه ورفع كتفيه ينكر عن نفس التهمة ويبرئ منطقه، فالسبب هو تصاريف الزمان الذي يذل رجالًا ويرفع أنذالًا، ثم يهز رأسه متراجعًا.. كلا بل السبب هو الغباء والتهور في دفع الأعداء، إنهم لم يفهموا أن الله أباح الانحناء والمهادنة كما أباح الحرام في الاضطرار، لو تأنى حمزة! لو تغاضى حمزة! لو انحنى قليلًا لكان بيننا الآن مرفوعًا الرأس ولكنا تحت قدمه كلنا نغني ونلقي الأشعار ونحكي قصته للصغار والكبار!..

انتبه عبود إلى حاله فاستعاذ بالمنطق من الضعف ورج رأسه يلقي بمشاعره إلى الأرض، ثم تنهد تنهيدة طويلة، ثم ابتسم ابتسامة عريضة عندما رأى الأتان، إنها واقفة أمام الكوخ ثابتة في كبرياء رغم البرد والمطر، اقترب عبود من الأتان الشاردة المسالمة، فأقبل عليها يمسح ظهرها دهشًا:

- كيف يتركك الشيخ هكذا ويستدفئ وحده بالداخل..

ثم صاح من الخارج:

- شيخ سلامة.. افتح بوابة القصر.. أنا عبود!

انتظر عبود لحظات وتوقع أن يخرج له الشيخ فاردًا ذراعيه، لكنه لم يخرج رغم الصياح، فاستنكر عبود الأمر وتقدم ليدق على الباب فانفتح الباب، فنظر في الكوخ فلم يجد الشيخ، فاستدار مسرعًا إلى المسجد فلم يجده، فعاد ينادي حول الكوخ علـه يقضي حاجته في الخلاء، فلم يجبه، ثم سمع جلبة حوله وصياح فاستدار ففوجئ بالعسكر قد أحاطوا المكان، فأسقط في يديه ثم انحنى مستسلمًا!

***

وصل سائر النوحية بسلام، اخترقتهم فاطمة مسرعة من الخلف إلى الأمام وسط الفناء، دارت حول نفسها، نادت:

- صالح!

لم تهتم لمراقبة المراقبين، خاصة الجازية، فدلفت إلى المنضرة فرأت الأولاد قد غطوا في النعاس تحت اللحاف، فخرجت مسرعة نحو حجرة أبيها، فوجدت حبيبها جاثيًا بين عميه، يجهز لأحدهما الحاقنة ويجهز للآخر رباط الشاش، فوقفت مكانها وألقت بظهرها إلى الباب تتنهد سعيدة، وهي تتأمله من ظهره، فالتفت إليها صالح بخجل يخشى

المراقبين، فانقطعت هي عن عالمها وسعت إلى عينيه، فلم تستمع إلى صياح أمها التي تنهرها للتأخر والغياب .

(٦٥)

جلس حبشي على ركبتيه وحيدًا على ممشى الجنينة، فبدا كمن أصيب بجنون، وقد رفع رأس أبيه إلى فخذه، وأخذ ينتحب ويندب ويعفر رأسه بالتراب وهو يتمايل يمينًا ويسارًا كالثكالى، ويتوعد:

- سأقتلك يا ابن زبيبة.. سأقتلك يا يعقوب..

***

قام حسن وصالح بنقل زينب إلى المنضرة هربًا من مداعبات المطر الثقيلة، وترحيبًا بالضيف الجديد، واصطف أولاد النوحية، بقيادة بشر وهند، الذين استيقظوا من نومهم فأعادوا الضجة للدار يتطلعون بشغف إلى الوليد الذي استقر في حجر بحر، ومصطفى الصغير الذي لم يعد صغيرًا، يجلس في حجر أبيه وهو يرمق بحسد شريكه الجديد على موقعه الجغرافي الفريد، وحسن ينظر إلى الصرة القماشية المرسلة من السرايا والبارزة من تحت الأريكة، فيتذكر الباشا وشيطانه، فيسأل الله السلامة ويستعيذ به من الشيطان الرجيم.

لم يفت خليفة المشهد قبل الأخير، فظهر في هدوء بائس عند باب المنضرة، لم يشعر به أحد سوى شبيهته الجازية.. ألقى نظرة يائسة بائسة كأنها نظرة وداع ثم انصرف دون كلام، فعادت الجازية لمهمتها المسلية

تتابع باهتمام عيون فاطمة وصالح التي تـدور في مآقيهـا مـا دارت ثـم تعود فتلتقي في عشق صامت.

صاحت حلاوتهم وسط هذه الضوضاء تعلن اسم الوليد:

- إنه حمزة الصغير..

فقال الأولاد وسائر الجمهور:

- نعم.. صدقتِ يا عمة.. إنه حمزة الصغير..

- حمزة الصغير..

ثم صمتوا في انتظار قرار صـاحبة القـرار، فهـزت بحـر عنقهـا رافضـة شاردة وهي تنظر إلى الوليد:

- كلا.. اختاروا اسما آخر.. حمـزة لا يـزال بيننـا وسـيعود ليملأ الدنيا بصوته..

صمت الجميع في انتظار اعتراض أو اقتراح بديل.. لكن بحر تخشى الصمت وتعرف ما وراءه، فقالت سريعًا تدفعه قبل أن يشاركهم جلستهم شبه السعيدة:

- يا أولاد سأحكي حكاية حمزة..

فهلل الأولاد فرحين وهلل بعض الجالسين:

- هيييييه!

فأشارت لهم تهدئهم وتذكرهم بعمهم المريض، ثم ألقت بتجهمها على عتبة الحجرة، وابتسمت ابتسامة مشرقة كأنها تتوضأ قبل أن تدخل في رحاب حبيبها..

- كان ياما كان ولا يحلو الكلام غير بذكر النبي عليه الصلاة والسلام...

***

قبيل الفجر بساعة.. انقطع المطر وصفت صفحة السماء ونامت الرياح.. وهجع كل النوحية إلى شبه نوم شبه هانئ، إلا بحر المشغولة بالوليد، والقلقة من هذا الصمت الاضطراري الطويل..

تُرى ماذا سيقطعه من جديد؟

فجأة صهلت الفرس في الحظيرة وضربت بقدمها، فتململ أغلب النائمين والبعض فتح عينيه منتبهًا للحظات ثم عادوا لنومهم.. اطمأنت بحر على أهل الدار المكومين تحت الألحفة، نظرت إلى صالح الذي لم ينم مثلها فابتسمت تطمئنه وتطمئن به.. ثم عادوا إلى نومهم..

ثم قطع الصمت طرقات قوية مدوية على الباب كأنها محاولة اقتحام، إنها طرقات يعرفونها جيدًا.. ثم صوت جهوري رخيم زاده الصمت الطويل ندى وقوة وصفاء، يرج الدار وعزبة نوح بأسرها، ويرهب الباشا في سراياه:

- افتحي يا بحر.. أنا حمزة..